روايات غادة

هيلين بنكس

البحث عن الجذور

www.elromancia.com

مرمورية
بيروت - لبنان

غادة

البحث عن الجذور

هيلين بنكس

في سياق بحث ديانا ستيوارت عن أسلاف عائلتها... وجدت التاريخ يتكرر... ولكن لقاءها برين العم البعيد، اريك ويلكوت، لم يساعدها في تكوين الفكرة المناسبة عن التاريخ... ومع ذلك فقد كانت تسير في طريق هي نفسها لم تكن تتوقعها... فهل سينكشف لها الغموض؟.

وهل ستتحول كراهية الحفيد اريك الى حب؟.

وكيف تتمكن من متابعة بحثها دون ان تتسبب في ازدياد كراهيته لها؟.

البحث عن الجذور

كانت ديانا ستيوارت تحس بأنها اكتسبت شهرتها الكبيرة، ككاتبة وباحثة علم الاجتماع في جامعة كارلتون في أوتاوا، تكبدها وسعة مجال أبحاثها.

فهذه هي خامس رحلة لها الى أوروبا في مجال أبحاثها، والأولى الى انكلترا، والعمل الحر له أفضلياته، مع انه قد يعني أنها قد تواجه المشاكل منفردة في حال حصولها.. كما الحال الآن.

رايان جيبسون، مساعدها والمكلف بالتقاط الصور لأبحاثها، أصابته فيروس الانفلونزا حال هبوط طائرتها. مطار ميترولي لندن، بسبب الطقس البارد ونقل على عجل الى أقرب مستشفى. وهي تراقبه ينقل بسيارة الاسعاف قررت ان تأخذ بنصيحته الهامة بأن تكمل مهمتها من دونه، فالصور يمكن ان تؤخذ فيما بعد، عندما يشفى ويلحق بها.. والى ذلك الوقت يمكنها متابعة سفرها الى غلاسكو في اسكتلندا ومن ثم الى أرض الهايلاندر لتتعرف الى موضوع بحثها.

فكرة ربط العائلات الكندية بأسلافهم وجذورهم القديمة في بلدان أوروبا وخاصة انكلترا كانت فكرتها أصلاً. مع أن ادارة كلية علم الاجتماع في جامعة كارلتون

قد تبنتها بحماسة، وأعطتها الموافقة بالعمل الحر طالما ترسل أبحاثها أولاً بأول، وتنهي كتابها عن الموضوع في فترة محددة.

واضح أنها كانت متقدمة جداً في مواعيد أبحاثها مرده الى حبها الشديد للسفر، وبعد اختيارها الدقيق لعائلات في كندا، رمت نفسها في رحلات مكوكية سريعة عبر أوروبا تلاحق جذور تلك العائلات بحيوية رائعة جلبت لها التعاون من دوائر لم تكن تنتظره منها. وتركت انكلترا الى آخر المطاف لأسباب خاصة بها، وواجهت هذه الرحلة بإثارة أكثر اثارة من الأخريات.

مصادفة أن لعائلتها ارتباط ما بعائلة ستيوارت ويلكوت في الهابلاندر الاسكتلندية، لم تكتشفها إلا بعد أن كشفت عن مشروعها أمام جدها، ولقد زاد من لذة نكهة الموضوع علمها أنها متورطة شخصياً بهذا المشروع.

ولطالما تمنت ديانا لو أنها عايشت جدها أكثر خلال طفولتها. ولكن عمله كقبطان سفينة جعل ذلك مستحيلاً، فلقد كان دائم الترحال، مع شدة ولعها به. فقد كان رجلاً ضخماً، بارعاً في علم الرصد الجوي، وله موهبة البحّار التقليدية في رواية القصص، ولطالما أصغت باهتمام واثارة عندما كان يردد تاريخ أسرته، تاريخ لم تكن تعلم الكثير عنه ما عدا وقائع طبابية حتى أيامها

هذه... وما ترك زيارتها الى اسكتلندا الى آخر المطاف إلا أمر مقصود لتتمكن من صرف أطول وقت ممكن ومع ذلك موافات موعدها الذي حددته لها الجامعة.

كانت قد أصغت بجذل بينما كان جدها يقص لها قصة تشارلز ستيوارت ويلكوت، لورد اوق غلين الذي هرب من اسكتلنده اثر حملة التطهير التي قام بها الملك ادوارد ضد ملوك اسكتلندا وعشائرها أيام الاصلاح الديني. ومن جدها علمت أن نسل العائلة تحدّر عبره وعبر سارة دوبريه، ابنة قس فرنسي استهواها النبيل الهارب فتزوجته.

ولكن اللورد النبيل لم يعش معها طويلاً، بل تركها وعاد الى بلاده بعد موت الملك.. ولكن ابنهما الذي سُمّي ستيوارت، تزوج زواجاً محترماً وأسس العائلة التي أنجبت في النهاية والدة ديانا.

في رسالتها الى الرأس العالي لعائلة ويلكوت، ألمحت الى هذا الواقع والى علاقتها النبيلة بهم، وكان رده لبقاً لطيفاً ومساعداً. ولم يعرض عليها فقط كل مساعدة ممكنة في مهمتها بل أضاف الأمل بأن تشرفه بأقامتها معهم في قصر ويلكوت خلال اقامتها في انكلترا، مهما طال وقت تلك الاقامة، وشملت الدعوة كذلك، مرافقها المصور رايان جيبسون.

وهكذا وجدت التفكير بأن الناس الذين تتوجه الآن لرؤيتهم ولهم علاقة بعائلتها بروابط تعود الى ما لا يقل

www.elromancia.com

عن أربعمائة سنة، أمر مثير بشكل لا يصدق. وأخذ هذا الشعور يتزايد كلما اقتربت بها الطائرة الى مطار غلاسكو.

السيارة المستأجرة التي قادتها من غلاسكو شمالاً الى غلين مور كانت معدة أصلاً لنقلها ورفيقها الى قصر ويلكوت.. ومع ذلك فقد أحست الآن أن سفرها هذا أمر خاص جداً بها. فهناك رابط عاطفي وتاريخي شخصي لها أحست بأنها تحتاج الى اكتشافه لوحدها، وبإمكان رايان أن يظهر في العودة لاحقاً، بعد أن تكون قد خطت أول خطواتها هناك.

استطاعت قبل ان تغادر موطنها ان تعرف بضع وقائع عن العائلة وأفرادها، بما يكفي لاعطائها فكرة عن شخصياتهم، مما جعلها واثقة بمقدرتها على مقابلتهم بنجاح كما فعلت مع السلسلة الأخرى من العائلات التي قابلتهم في نفس السياق، ولكن مهمتها هنا تختلف فهي تسعى الى اعادة تأسيس الرابط القديم بين العائلتين على أمل الصداقة وأن ينظر اليها كرابط عائلي بدلاً من ساعية وراء معلومات للبحث وتأليف قصة كتاب.

تمكنت بطريقة ما أن تحافظ على قيادتها للسيارة الى يسار الطريق، كما هو الحال في البلاد، متذكرة زيارة قديمة قامت بها الى مقاطعة وايلز، وتذكرت ان اسكتلندا ووايلز لهما كثير من الأمور المشتركة، فكلاهما له الحق في الادعاء بأنه كان مملكة قائمة بذاتها في القديم وأن

الكثير من القتال قد جرى لأجل هذا الحق، وأن لم يخضع أو يذل أبداً. والشعبان لا زالا يحافظان على قصتهما السلتية الأصلية التي تشمل اسكتلنده ووايلز وايرلنده، وكلاهما فخور بوطنيته وتقاليده. واسكتلنده بلاد الغابات الجميلة والمراعي الواسعة، والينابيع والأنهر الصافية النقية والوديان الرائعة، وأحست ديانا بأن المكان يستأهل الزيارة حتى ولو لم يكن هناك ما في فكرها غير السياحة.

كانت ديانا مستغرقة في تأمل المناظر من حولها حتى أنها كادت أن لا تلاحظ الاشارة المثبتة عند منعطف حاد تشير الى الطريق نحو غلين مور وقصر ويلكوت. ولكنها سرعان ما لاحظتها وحاولت الانعطاف بسرعة فأدارت العجلات بحدة مما دفع بالسيارة الى أخذ الجهة الأخرى من الطريق.

وتجهم وجهها، وتمسكت جيداً بالمقود وهي تصلي أن لا يكون هناك شيء ما قادم من الناحية الأخرى.. واستدارت السيارة بها في عرض الطريق، وتصاعد هدير الاطارات فوق الاسفلت الخشن، وتوقفت في الناحية الأخرى للطريق، وعلى بعد بضع شعرات من مقدمة سيارة جاكوار خضراء سارعت للتوقف حالاً، ولكن ليس بالسرعة الكافية لأن لا تصطدم السياراتان قليلاً.

وجمدت ديانا دون حراك وراء المقود للحظات، وقلبها يدق بقوة من توقع ما كان سيحدث من حادث

فظيع، وليس هذا فقط بلّ كونها هي المخطئة، ولاحظت أن سائق الجاكوار قد ترجل من سيارته ووقف يتفرس مقطباً بمقدمة سيارته. وفي بضع خطوات كان يواجه ديانا وهي تخرج من سيارتها لتواجهه، تحدق باضطراب الى السيارتين المتلاصقتين.

كان الرجل طويلاً، أطول من ان تحس بالراحة أمامه، وله نظرة باردة وعينان رماديتان تلمعان بغضب وهو يتكلم بلهجة اسكتلندية عميقة اللكنة:

«ما بالك آنستي هل انت مجنونة؟».

وكانت ديانا شاحبة وترتجف، ولكن هذا لم يلفت اهتمامه أبداً وبدا أمامهما واد سحيق مغطى بكروم العنب، على بعد بضع سنتيمترات من اطارات سيارتهما الأمامية، وكانت ترتجف من التفكير بما كان سيحدث حتى أنها لم تهتم بالامتعاض من مهاجمته لها. وبلعت ريقها بصعوبة ثم هزت رأسها.

«أنا آسفة، لم أفهم تماماً لهجتك الاسكتلندية».

«انت اذن لست انكليزية.. ولهذا انت تقودين على الجهة الخاطئة من الطريق!».

«أنا كندية، ولكنني لم أكن أقود على الجهة الخاطئة. بل قد فاتني ملاحظة الاشارة باتجاه قصر ويلكوت، ولابد أنني انعطفت في المنحنى بشكل عريض جداً».

«انت صادقة يا آنستي.. ولكن كما ترين، ليس من السهل منك تشابك مقدمة السيارتين، وأنا لدي موعد هام

بعد نصف ساعة».

«أنا آسفة جداً! لو أنني أستطيع المساعدة!».

وبدا عليها اليأس، ولكن من غير المجدي ان تقترح أي شيء، فهي جاهلة في أمور الميكانيك، ولطالما اعتمدت على الآخرين لحل مشاكل سيارتها، وكانت مقتنعة انه لن يقبل عرضها بالمساعدة، ولكن لخيبة أملها لم يفعل، وقال:

«خذي ناحية من واقي الصدمات يا آنستي! ويمكن ان نتمكن من تحرير سيارتي!».

وسار الى الناحية الأخرى، ووقف قريباً جداً من المنحدر الشديد باتجاه الوادي، ووضع يده تحت واقي الصدمات في مقدمة سيارته، وبما انها السيارة الأكبر، فقد كانت مقدمتها هي الأعلى، وبدا لديانا انها تستلزم قوة كبرى لرفعها، ورفرفت عينيها لمجرد توقعه المساعدة منها. وسألته:

«وهل ستتمكن من ذلك؟».

أخذ يحرك سيارته صعوداً ونزولاً محاولاً زحزحتها قائلاً:

«ستتمكن من هذا يا آنستي، فامنحيني مساعدتك، لو سمحت! يجب عليّ ان أتابع طريقي».

وذهلت ديانا عندما تم لهما تفريق السيارتين ولكنها آذت يدها خلال العملية، ولكنه تجاهل صرخة الألم التي أطلقتها، ووقفت تضغط معصمها المتألم على شفتيها،

www.elromancia.com

تنظر اليه لائمة.

وتفحص أضرار سيارته، ولم يفعل المثيل لسيارتها، ثم استدار لينظر اليها، فرأته بوضوح لأول مرة، ولم يكن ما يمكن لها ان تصفه بأنه رجل اسكتلندي نموذجي، مع انها تشك في ان يكون هناك شيء يدعى هذا. فبطريقة ما كانت تنظر الى الاسكتلنديين كعرق «سلتي» أسمر بني الشعر ولكنها وجدت الرجل أشقر، بشعر كثيف أملس، وعينان رماديتان بلون الفولاذ، أخذتا تراقبانها باهتمام مثير للإحراج.

ولم تكن ديانا غير معتادة على اظهار الاهتمام بها من قبل الرجال، فلقد كانت جميلة فعلاً، صغيرة البنية لها جسد نحيل ملفوف ووجه بيضاوي صغير، وشعر طويل أسود، وعينان زرقاوان يحيط بهما رموش سوداء طويلة كأهداب الطفل. ولم تفشل مرة في اجتذاب اهتمام الذكور. ولكن كان هناك شيء محفوف بالتأمل والتخمين في نظرة هذا الرجل، والتي سببت لها قليلاً من عدم الارتياح واعتبرت نفسها انها غبية لمجرد وقوفها هناك تتحدث اليه في طرق تبدو مهجورة.

ولم تحس بارتياح أكثر عندما ابتسم لها فجأة بسخرية.

«آمل يا آنستي، ان تكوني قد أدركت الآن مدى خطر قيادة السيارة على الجانب الخاطىء من الطريق! وأنا على ثقة انك ستكملين ما تبقى من رحلتك دون أخطاء! وداعاً.. يا آنستي!».

وبذهول، أحنت ديانا رأسها قليلاً، ثم راقبته يعود الى سيارته ليقودها مبتعداً. لقد كان متعجرفاً وفظاً، على عكس النبلاء الاسكتلنديين، ولكنه، بطريقة ما، بطريقة ما، أثرّ بها، ووجدت نفسها تفكر فيه، من هو، ومن أين أتى!.

ولم تستغرق رحلة وصولها الى قصر ويلكوت طويلاً، أمضتها على أمل ان تلقى في القصر ترحيباً أكثر حرارة مما لقته من الغريب المزعج على الطريق.

نظرة، تخطف الأنفاس، عبر أشجار الكستناء للبروج المستدير الرفيعة، والسقوف المحدبة، وفرت لديانا أول معرفة بقصر ويلكوت، قصر لورد غلين الأثري القديم، وأحست بقلبها يخفق من الاثارة وهي تقود السيارة عبر البوابات العريضة وأحست بالرعدة تسري في أوصالها، وبحرارة الدم في وجنتيها، وهي تتوقع ما ستقابله.

عن قرب، كان مبنى القصر أكثر جمالاً مما توقعت، وما استرقت من نظر اليه عبر الأشجار الكثيفة. ومع انه مبني من حجر الغرانيت المحلي، الذي كان يضفي نظرة متجهمة على خطوط هندسة القصر الأنيقة، الا انه كان جذاباً، مما دعاها الى تذكر أشياء كثيرة من تاريخه.

رأس العائلة الحالي، هو اللورد توماس ستيوارت ويلكوت، لورد اوق غلين. وبما انه في الثامنة والثمانين من عمره، فإن ادارة الأملاك الآن هي بين يدي حفيده اريك ستيوارت ويلكوت. زوجة اللورد توماس العجوز

www.elromancia.com

ايزابيل، حية كذلك، وهي في الثمانين من عمرها، ولكن ابنتهما الوحيدة سارة، قتلت خلال الحرب العالمية الثانية.

وسارة ويلكوت هي الآن من تفكر ديانا فيها... وجلست جامدة في السيارة بعد توقفها أمام القصر. فهناك عدة وقائع تحيرها حولها. فموتها كان غامضاً، وكذلك لم يكن هناك أي تقارير ثابتة، كما يبدو، عن زواجها، مع انها والدة اريك، كما هو معروف. وتجمعت هذه الوقائع لتثير الاهتمام في نفس ديانا، مع انها لم تأت الى هنا، لتسبب أي تعاسة في البحث عن التاريخ السيء.

ونزلت من السيارة لتتسلق الدرجات الحجرية نحو الباب الخشبي المقوى بالحديد، وترددت للحظات قبل ان تدق الجرس. وأحست فجأة بالقلق، وتطلعت الى فوق نحو الواجهة الأنيقة الهادئة للقصر بعينين ظللتهما الشكوك.

جذبها للمقبض الحديدي للجرس الى جانب الباب كان الرد عليه سريعاً لدرجة ظنت ان هناك من كان ينتظر قرعها له. وابتسمت للمرأة التي ردت.

وخمنت ديانا ان المرأة في الستين من عمرها، ولها شعر رمادي وعينان لامعتان سوداوان ووجه يخلو من الجمال. ونظرت الى ديانا نظرة فضول صريحة وسألتها:

«نعم يا آنسة؟».

وأخرجت ديانا بطاقة تحمل اسمها.

«اسمي ستيوارت.. ديانا ستيوارت. والسيد ويلكوت بانتظاري!».

وتراجعت المرأة الى الخلف:

«آه.. أجل آنسة ستيوارت!».

وفتحت الباب أعرض بقليل لتسمح لها بالمرور الى الداخل، وتابعت.

«سيدي اللورد يتوقع قدومك!».

فخامة لفظها للقب فاجأ ديانا للحظة، فلقد درست أوضاع العائلة جيداً ولم يكن هناك أي اشارة الى ان الرأس الحالي للعائلة لا يزال يستخدم اللقب القديم.

لوحة واثنتان على الجدران في الداخل، استرعت اهتمامها وهي تلحق بالمرأة... وأحست بالصدمة عندما شاهدت لوحة دفعتها للوقوف، كانت لوحة من القرن الثامن عشر لرجل في ثوب حريري أزرق... مع بعض التغييرات يمكن للصورة ان تكون صورة جدها وهو شاب، وأذهلها هذا الرباط الأول الذي اكتشفته ضمن سلسلة.

«آنستي!».

وأعادها صوت المرأة الى واقعها، ولحقت بها الى احدى الغرف المتفرعة عن الردهة وفتحت لها الباب. فسألتها ديانا وهي تشير الى الصورة.

«من هذا؟».

وتدفق الاسم بطلاقة من فم المرأة:

www.elromancia.com

«انه تشارلز ستيوارت ويلكوت لورد اوق غلين».

ونظرت ديانا ثانية الى الصورة، وهي تحس بشعور غريب من التعارف بوقوفها وجهاً لوجه مع جدها الأكبر الغامض. وإذا كان الشبه حقيقياً هكذا، فليس هناك من عجب اطلاقاً اذا كانت السيدة سارة دوبريه، جدتها، قد وجدته جذاباً.

«من فضلك يا آنسة».

مرة أخرى جذب انتباهها ذلك الصوت عبر الردهة، فابتسمت معتذرة وأسرعت للدخول عبر الباب المفتوح. وتفحصتها العينان السوداوان بفضول وهي تمر أمامهما الى داخل الغرفة، وبدا صوت المرأة مستهجناً وهي تقول:

«الآنسة ديانا ستيوارت، سيدي اللورد».

وانسحبت على الفور تاركة ديانا تقف داخل غرفة معتمة ضخمة حبست أنفاسها.

وحدق الشخص الجالس في المقعد ذو الذراعين قرب المدفأة بها، ثم أحست بقلبها يخفق في صدرها وهي تتقدم نحوه، فالكثير الكثير يعتمد على أول لقاء وأول انطباع تتركه في نفس توماس ويلكوت.

كان له وجه نحيل صغير يبرز من تحت شعر رقيق ابيض، وحاجبان رفيعان ابيضان وكأنهما خطان فوق عينان سوداوان براقتان، وهما أكثر قسماته حيوية. يداه صغيرتان جداً، وكأنهما لم تحافظا سوى على القليل من

اللحم فوق عظامهما الهشة. ومن الخصر نزولاً، كان جسده مغطى بوشاح كحلي له مظهر أنيق.

وأشار لها بيد متجعدة لتقترب منه أكثر:

«آنسة ستيوارت! أنا توماس ويلكوت. حمداً لله على وصولك بالسلامة. أرجوك ان لا تتقيدي بالرسميات كما تفعل براندە.. فالألقاب ماتت كما ماتت أيام العزّ التي اختلقتها!».

«أنا سعيدة بلقاءك سيد ويلكوت».

فأشار اليها بالجلوس ففعلت فوق مقعد مماثل لمقعده وقريب منه، وقال العجوز معتذراً:

«أستميحك عذراً، فأنا نادراً ما أغادر هذا المقعد، فأمل ان تسامحيني يا آنستي!».

فردت بابتسامة:

«اوه.. ولكن بالطبع يا سيدي، ولكنني آسفة لأجلك».

«انت عاطفية جداً. والآن يا آنستي، هل كانت رحلتك مريحة؟ ألست تعبة؟»

«أبداً، بالمرة، الأمر المؤسف الوحيد ان مرافقي المصور التقط فيروس الانفلونزا بسبب الطقس البارد في لندن، وأرجو ان لا يطول مرضه. والرحلة الى هنا كانت جميلة، ولقد تمتعت بالقيادة عبر ريفكم الجميل».

اعجابها ببلاده أرضاه بشكل ظاهر فقال:

«عظيم! هل كان هناك زحام على الطريق؟».

www.elromancia.com

وتذكرت ذلك الرجل الأقل كياسة والذي التقته على الطريق، فقالت وقد تجهم وجهها قليلاً:

«لقد لاقيت مشكلة صغيرة قبل الوصول الى هنا. فقد اضطررت الى الالتفاف عند منعطف حاد وكاد ان يحصل اصطدام».

«اوه يا آنستي.. أرجو ان لا تكوني قد تأذيت؟».

«لا لم يصبني أذى.. كرامتي فقط، فالرجل الذي صادفته لم يكن لطيفاً كما كنت دائماً أثق بأن يكون الرجال عندكم. وتركني دون ان يترك أدنى شك بأن الذنب ذنبي!».

ورفع يداه المعروقتان برعب لسماعه تصرف أحد أبناء بلده.

«هذا فظيع يا آنستي.. انه انطباع قبيح أخذتيه عنا!».

«لا.. أبداً، وأغلب الظن انني لم أكن محظوظة بلقائي استثناء لقاعدة عامة!».

«شكراً.. انت لطيفة جداً يا آنسة! يبدو لي ان ذلك الشاب غير المهذب معتاد على رفقة ما يسمى بالنساء المتحررات.. وهناك الكثير من اللياقات ضاعت في خضم هذه التغيرات.. أليس كذلك؟».

«ربما...».

«آه.. والآن.. عندما تصبحين مرتاحة ومنتعشة بعد سفرك. ستتحدث عن العائلة.. هه؟».

فهزت رأسها:

«لهذا أنا هنا».

«ولكننا أولاً ستتناول الشاي على الطريقة الانكليزية الأصلية. وسترين اننا مستعدون لك.. هل تسمحي بقرع الجرس لبرانده؟».

وكان واضحاً ان النداء كان متوقعاً، فقد دخلت مدبرة المنزل ومعها امرأة أخرى بيضاء الشعر، طويلة، لم تقدم نفس حرارة الترحاب لها كما فعل توماس ويلكوت. وتركت مدبرة المنزل عربة الشاي والبسكوت أمامها وانسحبت فقال الرجل العجوز:

«عزيزتي، أقدم لك الآنسة ديانا ستيوارت... آنستي أقدم لك السيدة ايزابيل ويلكوت، زوجتي».

وأمسكت ديانا باليد الممدودة لها لتجدها باردة وجافة:

«سيدة ويلكوت... تشرفنا».

«أهلاً بك يا آنسة.. هل ستتناولين الشاي؟».

«أجل.. شكراً لك يا سيدة».

ودرست مضيفتها من بين أهدابها المنخفضة، وقررت انها امرأة ملفتة للنظر حتى في أعوامها الثمانين، ولابد انها كانت يوماً رائعة الجمال. ومع ان قلقها كان ظاهراً، الا ان هذا لم يؤثر على أناقتها وتصرفاتها اللائقة، ووجدت ديانا انها ساحرة كزوجها تماماً.

بعد تناول الشاي أوصلت برانده ديانا الى غرفتها. ولأول مرة أدركت كم هي محظوظة للإقامة في هذا

القصر.. فلقد كانت نوافذ غرفتها تطل على مناظر ريفية خلابة، ومساحات الكرمة والأشجار الواسعة جداً كانت تمتد وكأنها غطاء أخضر في الحقول.

نهر صغير، او قد لا يكون أكثر من ساقية، كان يجري على أقدام حدائق القصر المنحدرة نحو الأسفل البعيد، تلمع مياهه تحت أشعة الشمس يظلله هنا وهناك أشجار صفصاف وكستناء تنمو حوله.

مهما كان تشارلز ستيوارت ويلكوت، لورد اوق غلين، قد ترك انكلترا مفلساً كلاجيء، فإن المتحدرين من أصله لابد انهم ينعمون بثروة طائلة كما كان سلفهم الارستقراطي دائماً، وفكرت ديانا بالارث الذي قد يصل الى اريك ويلكوت العضو الوحيد في العائلة التي بقي عليها ان تقابل.

واستحمت، فأحست بالانتعاش. وغيرت ملابسها تتحضر للإنضمام الى مضيفيها على العشاء. متسائلة ما اذا كانت ستقابل اريك ويلكوت هذه المرة. وكان لها تصور خاص به، لا علاقة له باللوحات المعلقة لأسلافه.. فلقد تصورته بالرجل القصير، الأسود العينين كجده، وربما كان له شارب، وربما يكون جذاباً.

وتفحصت ساقيها جيداً لغسل غير مرتقب في جوربها وفتحت باب غرفتها. لم يكن هناك أحد في الممر الطويل او في شرفة الرواق الذي يعلو السلم. ولكنها سمعت أصواتاً قادمة من مكان ما في الأسفل، وهي تنزل السلم

المزخرف الملتوي، خرج شخص من أحد الغرف.

لمحة واحدة الى أعلى رأسه كانت كافية لديانا لتعرفه، والتقطت أنفاسها وهي تتوقف، وأخذ قلبها يدق بقوة داخل صدرها. وفكرت بكل ما تكبدته من مشقة لتعطي توماس ويلكوت الانطباع الجيد، وها هي تجد نفسها وجهاً لوجه مع الشخص الذي أفهمها بتصرفاته انها حمقاء. رجل وصفته لمضيفها بأنه غير لطيف ولا لائق، تعوزه الأخلاق التي كانت تتوقع ان تجدها عند الرجل الاسكتلندي التقليدي.

ورفع الرجل رأسه وهي تقف هناك. ولاحظت الدهشة السريعة التي ظهرت في عينيه الرماديتين، بعد تعرفه اليها. وكان واضحاً انه بانتظار ان تنزل اليه، فلم تجد خياراً آخر، وأحست بحرارة الدم ترتفع الى خديها وهو يحدق بها.

«مساء الخير آنستي!».

ولم يساورها أدنى شك بحيث هو من جو الثقة بالنفس الذي يحيط به، وتستطيع ان تقسم بأنها لمحت الضحك في عينيه وهو ينظر اليها، وتناول يدها في يده الضخمة القوية، وضغطت أصابعه عليها قليلاً، وفي عينيه نظرة تحدٍ بأن تعترض على رسمياته.

وقال لها باحناء خفيف من رأسه فوق يدها.

«أنا اريك ويلكوت. ها قد التقينا ثانية يا آنستي!... وهذا سرور غير متوقع لي!».

حتى الآن، كان الانطباع لديها، بأنها بالرغم من ترحيب توماس ويلكوت بها، فإن السيدة ويلكوت وحفيدها كانا يفضلان ابتعادها، وكلاهما عاملها بأدب، ولكن، كان هناك شيء لا يمكن تجاهله في تصرفاتهما جعلتها لا تشك أبداً بأنهما لا يتمتعان بفكرة وجود غريبة وسطهم.

وكأن هناك أمر مريب يريدان اخفاءه... ومرة أخرى انجرفت أفكارها دون وعي نحو سارة ويلكوت، ابنة مضيفيها الوحيدة ووالدة اريك. ولم تشك مطلقاً في ان تكون براندە، مدبرة المنزل، مصدراً غنياً للمعلومات لو انها استطاعت ان تخترق حواجز الريبة. ولكن براندە كما يبدو كانت متبعدة عنها أكثر من السيدة نفسها.. ولم تحاول حتى اخفاء مشاعرها.

وأمضت ليلتها مرتاحة بعد وجبة عشاء رائعة وأمسية ممتعة، مع ان الأمسية مضت في بحث أمور عائلتها هي بدلاً من عائلة مضيفها. وهكذا لم تكن المعلومات التي لديها هذا الصباح بأفضل مما كانت لدى وصولها. فلقد أبدى توماس ويلكوت اهتماماً كبيراً بالسنوات التي أمضاها جدها في البحرية حتى انها وجدت نفسها تعيد سرد بعض أجمل القصص التي قصها عليها، وهكذا لم يتم المساس بموضوع تشارلز ستيوارت ويلكوت لورد اوق غلين لا من بعيد ولا من قريب.

وألقت نظرة أخيرة على المناظر عبر نوافذ غرفتها قبل

ان تخرج، وصممت على استكشاف بضعة فدادين من الأرض المنتشرة حول القصر قبل ان تغادر المكان الى بلادها. ولابد ان جدها الأول تشارلز ستيوارت ويلكوت، طالما ركب الخيل ليسير عبر هذه الأراضي الجميلة، ولابد ان هناك رابط ما له مع هذه الأراضي التي لم تتغير أبداً.

أول مهمة لها ان تعرف المزيد عن الرجل نفسه، فهو محور كل قصتها وبحثها... وفي طريقها الى الأسفل ذلك الصباح، توقفت لتحدق أكثر بصورة الرجل بالبذلة الحريرية الزرقاء، والذي أغرمت به ابنة قس فرنسي وواجدت رابطة بين عائلتها وعائلة ويلكوت الارستقراطية.

«صباح الخير يا آنسة!».

لسماعها الصوت الفجائي خلفها، استدارت ديانا بسرعة لتجد نفسها تحدق في عيني اريك ويلكوت الرمادية كالفولاذ. وفي تلك اللحظات بالذات تعرفت الى نظرة التحدي التي لاحظتها في عيني تشارلز ستيوارت ويلكوت، فعلى الرغم من فارق اللون. بينهما، فزوجا العيون تحملان نفس الانطباع.

«صباح الخير سيد ويلكوت».

وبدا صوتها، كما لاحظت، مقطوع الأنفاس مما أزعجها، ولكنها أملت ان لا يلاحظ الرجل هذا. وسألها:

«هل كنت تبدين اعجابك بآخر لورد لغلين؟».

«أجل... لابد انه كان رجلاً فاتناً كما لاحظت من صورته».

«آه.. انت اذن تجدينه مغرياً كذلك يا آنسة!».

بإمكانها القسم بأن هناك لمحة رضى تعجبه وتساءلت عما اذا كان يدرك بالتشابه ما بينه وبين صاحب الصورة... وردت عليه:

«لاشك انه كان رجلاً فاتناً.. ولابد ان سارة وجدته لا يقاوم في ذلك الوقت. ولابد انه كان شخصاً... مميزاً، يختلف جداً عما كانت معتادة عليه في قريتها الصغيرة».

فقال بصوت ساخر خفيض:

«الاسكتلندي التقليدي الفاتن.. أليس كذلك آنستي؟ وهل تشاركين ذوق جدتك الكبرى؟».

ولاحظت، بصدمة، انه يسخر منها، ولمعت الضحكة في عينيه دون شك، وأحست بحرارة اللون الأحمر في خديها، وهي ترفع رأسها بزهو، ولم تجد سهولة في متابعة السخرية في عينيه، ولكنها مع ذلك حدقت في عينيه متعمدة بوقاحة أكثر مما قصدت. وقالت:

«من الواضح انني كذلك... سيد ويلكوت، مع علمي الأكيد ان الأجناس الرقيقة الكيسة من الأشواق قد انقرضت، كما يبدو لي!».

كانت تقصد لطعنتها ان تصل الهدف، ولاحظت ارتجاف حاجبه وهو يرتفع وكأنه لم يتوقع ردها. ولكنه

مع ذلك ابتسم وقال:

«آه.. طبعاً طبعاً! لابد انك تشيرين الى لقائنا على الطريق.. أليس كذلك؟».

«عندما اتهمتني بأنني أقود سيارتي في الجهة الخاطئة، وهذا لم يكن صحيحاً!».

فضحك ثم هز رأسه:

«لا؟».

فقالت بحزم:

«لا! لقد شرحت لك ما حدث سيد ويلكوت.. لقد أخطأت في ملاحظة الاشارة فاضطررت الى الانعطاف الحاد. ولقد فاجأني قرب حدوث الكارثة تماماً!».

«ولقد ظننتني فظاً، قاسي الفؤاد.. هه؟ أكان هذا بسبب طلبي منك المساعدة في تحرير سيارتي؟».

«وهذا ما فعلته بكل طيبة خاطر بعد ان عرفت ماذا يجب ان أفعل».

«هذا صحيح يا آنسة».

وأخذ يتفرس بها ثانية بنفس النظرة المرتابة في عينيه، فاستدارت بسرعة لتعيد دراسة اللوحة. وقالت دون ان تنظر اليه:

«ولكنني لست عاملة كاراج».

«أبداً يا آنسة!».

ومرة أخرى أحست انه يسخر منها فنظرت من فوق كتفها اليه، وقالت بجفاء:

www.elromancia.com

«حتى انني آذيت يدي من سيارتك التافهة».

ومدت يدها لتريه الندبة التي لا زالت ظاهرة.. وقبل ان تسحبها مد يده ليمسك بها بين أصابعه القوية، ونظر اليها للحظات، ثم رفعها الى شفتيه. ضغط فمه الدافىء أرسل الدم يغلي في رأسها، ولم تستطع الحراك للحظات وبقيت تحدق برأسه المنحني. وقالت أخيراً:

«سيد ويلكوت».

فرفع رأسه، ولكنها بقيت صامتة.. فقال:

«لقد ظننتني غير نبيل يا آنسة.. ويجب ان أعوض عن هذا الأمر».

وبدت عيناه تلمعان بأكثر من الاعتذار، فهزت ديانا رأسها وقد شكت بأنه يسخر:

«أرجوك لا تزعج نفسك سيد ويلكوت. فكوني عالمة نفس واجتماعيات، ومن طبيعة أبحاثي أجدني معتادة على...».

وهزت كتفيها، وبدى ظاهراً انها لا تريد ان تتلفظ بكلمة تتهمه بها بالغرور، ثم أضافت:

«أضف الى هذا انني هنا لأكتب قصة عن تشارلز ستيوارت ويلكوت، وليس كي أهتم بنقص نبلك أو كياستك... سيد ويلكوت».

ونظر اريك الى الصورة للحظات ثم سألها:

«الا يهمك نقص نبله وكياسته آنستي؟ فهو لم يهتم أبداً بجدتك، مع انها كانت...» وصمت وكأنه، كذلك،

لا يريد كشف حالة حمل سارة دوبريه لحظة هجر تشارلز ستيوارت ويلكوت لها... وهزت ديانا رأسها. ثم استدارت ثانية لتنظر الى تقاسيم وجه جدهما المشترك المتعجرفة ولكنها كانت تحس أكثر بعجرفة العرق الأخير من أسلافه الذي يقف خلفها. وعلمت ان عليها ابقاء اضطرابها من وجوده قيد السيطرة اذا كانت ترغب في اكمال عملها على أكمل وجه. وحساسيتها الحالية كانت أمراً جديداً عليها، وكرهت تأثيرها على شخصيتها الصريحة العادية... وسألته:

«ألم يبدر في ذهن أحد انه قد لا يكون عارفاً بأمر الطفل مطلقاً؟».

وحدق اريك فيها بنظرة ثابتة تلمح الى انه قد فهم نظريتها وأنه سيفعل المستحيل لاثبات خطأها وقال بهدوء:

«أولم يبدر لك يا آنسة، انه لم يكن يهتم؟».

«لا!».

ورفع حاجبه لانكارها الصريح وسألها:

«أتشعرين انك تعرفينه جيداً؟».

فردت بتصميم على الدفاع عن وجهة نظرها:

«بل أحس بأنني أعرفه أكثر من هذا!».

«ولكنني أعتقد انني أعرفه أكثر يا آنسة!».

فنظرت اليه، محاولة في تفكيرها الربط بين الشخصيتين ولكنها وجدت صعوبة لا تصدق. وسألت:

www.elromancia.com

«وأنت.. أتظن انه هجرها؟ هل تظن انه عاد الى بلاده ونسيها مع علمه بأنها حامل بطفله؟ أتظن هذا؟».

فارتسمت ابتسامة خفيفة في طرف واحد من فمه، وهز كتفيه بقلة اكتراث:

«لست أنا من أستطيع الاجابة على اتهامك يا آنسة. وهي غير حيّ ليجيب عليها او يحاكم!».

فتنهدت:

«لا.. هذا صحيح».

«أتجدينه غير كفؤاً؟ أم انت غير واثقة؟».

فقالت معترفة:

«لست واثقة، ولكن قد تسامح النساء شخصاً مثله وحتى فتاة ريفية مثل سارة دوبريه كانت تعرف انها تلعب بالنار عندما قبلت ان تتزوجه! ولكن مع ذلك...».

فقاطعها اريك مكملاً كلامها:

«كم تودين لو كنت تعرفينه!».

ولكن نظراتها اليه تحدته في ان يسخر من هذا.

«أنوي معرفته أكثر قبل ان أغادر هنا سيد ويلكوت. فهو وسارة دوبريه الشخصيتان الرئيسيتان في بحثي وبالتالي في قصتي.. ولكنه كما أظن، سيكون أكثر اثارة لاهتمام القراء من الشخصيتين.. فمثلاً عازاهو هو المسمى اللورد ستيوارت اوق غلين، تستخدم عائلتك اسم ويلكوت فقط؟».

ولم تكن تتوقع الرد منه، او حتى التعاون، ولكنه

أجاب دون تردد:

«لأنه لقبنا الأصلي ولنا حق الوراثة فيه. فعندما عاد الى انكلترا جرد من كل شيء ما عدا كبريائه، وبما انه لم يعد يجرؤ على استخدام لقبه خوفاً على حياته جعل من لقبه اسمه.. وعندما قدم دايفد، ابنه، دعوى استرداد الأراضي والقصر بعد سنوات عديدة من موت أبيه استمر في تسمية نفسه بويلكوت، وبقى اسم العائلة هكذا منذ ذلك الوقت».

«هكذا اذن... وكل مقصدكم ان يبقى اللقب لكم!».

«بالتأكيد! وربما تعتقدين ان هذا مجرد فخر زائف.. يا آنستي؟ أتعلمين اننا نتحدر من أصل ملوك اسكتلندا؟ نحن عائلة متأصلة في القدم يا آنسة، ويجب ان يبقى لنا فخرنا!».

«اوه.. ولكنني بالطبع أؤمن بهذا.. وفي الواقع أعتقد انني أحس بشيء من هذا الفخر، بما ان عائلتينا تشارك في التحدر من أصل واحد».

وعلمت حتى قبل ان تنهي كلامها انه أخرق. فما كان يجب عليها ان تبرز مثل هذا الادعاء بالقرابة مع عائلة ويلكوت الثرية. فقد يكره اريك مثل هذه الفرضية.. وأخذ ينظر اليها نظرات تبعث الاضطراب، وكأنه ينظر الى شخص من طبقة اجتماعية او من تجرأ وأودعى القرابة.

«رابطكم الهش لا يجيز لك هذا يا آنسة... خصلة

www.elromancia.com

الاتصال بيننا، بالرغم من إنتاجها لطفل، وعذراً على الافتراض، لم تكن أكثر من صلة عَرَضية، وطفل سارة دوبريه لم يكن شرعياً مطلقاً ولا حمل رسمياً!».

اعتراضه كان خشناً أكثر مما توقعت، وأحست بعودة الدم الى خديها، وقالت:

«أعتقد انه كان يحبها! وأنا واثقة من هذا!».

«عجباً لاصرارك على تأكيد هذا الحب.. كم هو أمر عاطفي يا آنسة!».

بعد لحظات تفكير، قالت له:

«تبدو مصمماً على ان تكون غير ودود معي يا سيد ويلكوت.. ولا أستطيع فهم السبب».

فوضع يده تحت ذقنها فجأة حتى انها أجفلت لملامسة أصابعه القوية، ورفع وجهها اليه.

«أنا لست غير ودود يا آنسة. ولك مقصدي كان ان أشير لك ان علاقة عرضية عرضية، ليست بالضرورة ان تكون علاقة قلبية».

فردت بلؤم:

«أفترض انك تقوم بهذا الافتراض عن خبرة في كلا الحالتين يا سيدي. فأنت تتكلم بثقة كبيرة».

ولاحظت البريق الذي يفضح الغضب في عينيه ولكنه استبدل هذا بسرعة بضحكة، فأخفضت بنظرها.. وقال متحدياً:

«وهل تشكين في هذا يا آنسة؟».

وأمضت ديانا ما تبقى من النهار، تدون ملاحظاتها، تبني لقصتها خلفية.. وسارت نحو القرية الصغيرة التي لا تبعد كثيراً عن القصر، وجلست لفترة قرب نفس الساقية التي تجري في أواخر أرض القصر.. وحتى الآن لم تتكلم مع أحد سوى في رد بضع تحيات ودية، وهي تدرك تماماً ان عيون الرجال كما النساء كانت تتابعها باهتمام.

واعترفت لنفسها ان سبب رغبتها في البقاء خارج القصر طوال هذه المدة، هو لتجنب رؤية اريك ويلكوت كثيراً. فقد وجدته أكثر رجل مثير يبعث الاضطراب ممن قابلتهم في حياتها، وكرهت التأثير الذي يتركه عليها دون ان تعرف لماذا... لم يكن وسيماً، وأكثر نضوجاً من الرجال الذين تعرفهم.. مما جعلها لا تحس به كرجل فقط، بل قلقة بأن يكتشف كذلك حقيقة مشاعرها نحوه.

ووجدت نفسها تواجهه عند مائدة العشاء، ولكنها تمكنت من اشغال اهتمام جده لمعظم الوقت... وبانتهاء العشاء، جلس الجميع في الصالون الكبير باسترخاء بعد الوجبة اللذيذة، وجلست ديانا قرب توماس العجوز محاولة ان لا تنظر الى حفيده، مع ان نظرها، وبشكل محتوم، كان ينجرف نحوه وهو جالس قرب جدته.

وأعادها صوت توماس العجوز الى واقعها:

«لابد، بالطبع، انك تعرفين عن سارة دوبريه أكثر منا يا آنسة».

www.elromancia.com

«أخشى العكس يا سيدي... وآسفة لأن أقول انها لم تكن مهمة بما يكفي لتسجيل تاريخها.. حتى اننا لا نملك صورة لها».

فهز العجوز رأسه:

«كم هذا مؤسف.. انه أمر مثير للإهتمام ان نشاهد السيدة التي جمع حبها عائلتينا... أليس كذلك؟».

«طبعاً.. وفي الواقع الوصف الوحيد المكتوب عنها كان في مذكرات جد جدى الأكبر، جورج ستيوارت.. لقد كان حفيد ابن سارة دوبريه، ويبدو انه كان يهتم بتاريخ العائلة، ومن خلاله سمعنا بها، ولقد اكتشف تميمة لتشارلز مع رسائل حب في شقته، حسب مذكراته، وتلك الرسائل كانت أول اشارة بأنها كانت متزوجة من تشارلز وأن الطفل طفله.

وسمعت اريك يتمتم:

«طفل الحب!».

فردت عليه بسرعة لتتجنب النظر اليه:

«كما تريد يا سيد».

وبدت الحيرة على توماس العجوز للحديث الغامض المتبادل، ولكنه سأل في شيء استحوذ على تفكيره أكثر:

«لقد تكلمت عن تميمة آنسة ستيوارت.. من كانت تشابه اذا لم تكن صورة السيدة؟».

«كانت صورة لتشارلز ستيوارت ويلكوت لورد اوق غلين.. وجدي يذكر انه شاهدها عندما كان طفلاً، ولكنه

لا يذكر ماذا حدث لها. ربما بيعت لسبب ما في أوائل القرن، عندما بيع منزل العائلة القديم. والتميمة لم تعد مع العائلة الآن، وإلا لاكتشفتها خلال بحثي».

فهز العجوز رأسه:

«أمر مؤسف!».

ولاحظت ديانا ان السيدة ويلكوت أبدت الاهتمام المفاجيء بالموضوع، وكانت تنظر الى ديانا وكأن شيئاً فيها يحيرها. ومضت بضع دقائق قبل ان تقول ما الأمر، ثم ذكرته بشكل عرضي، وكأنها غير واثقة:

«تتكلمين عن تميمة يا آنسة، من المفترض ان تشارلز ستيوارت ويلكوت كان قد أعطاها للآنسة دوبريه، أوليس من المعتاد ان يتبادل الأحبة مثل هذه الهديا.. كتذكارات حب، أليس كذلك؟».

فهزت ديانا رأسها، وأحست بتحركات غريبة في فم معدتها لم تعرف سببها وهي ترد على السيدة العجوز:

«أجل سيدة ويلكوت.. أظنك على حق، كان الناس قديماً يتبادلون التمائم التي تحوي على رسوماتهم كما يتبادل الناس اليوم الصور».

«اذن، ربما، يكون هناك.. كيف أقول؟.. زوج من هذه التمائم متبادلة...».

ونظرت الى زوجها، وأشارت بيد رقيقة اليه بأن ينظر الى الفتاة الجالسة بقربه، وتابعت:

«انظر الى الآنسة».

www.elromancia.com

فقطب توماس للحظة بفضول ثم فعل ما طلبته وأدار عينيه السوداوين الى ديانا ودرسها للحظات. ولاحظت ديانا نظرة التعرف تلمع فجأة في تعبيرات وجهه، ورفع يديه قائلاً بصوت حاد من الدهشة:

«يا الهي يا عزيزتي.. انت محقة.. محقة جداً!».

وأخذت ديانا تنقل نظرها من واحدهما الى الآخر وأحست بالاثارة أكثر من الأول، كذلك أحست بعين اريك مثبتتان عليها، ضيقتان متلألئتان. وكان يبتسم ايضاً، لتظهرا أسنانه البيضاء القوية في وجه متحجر، وبدأ قلبها يخفق بشدة وهي تلتقي بنظرته، ثم قال:

«آه.. بكل تأكيد.. أجل يا جدتي... انها فتاة الليل... الفتاة السوداء... ذات الوجه الملائكي!».

وللحظة بدت جدته مذهولة لاطراءه المبالغ، ولكنها هزت رأسها وكأنها وجدت كلامه مناسباً وابتسمت له، قائلة بابتسامة:

«ربما تحب الآنسة ستيوارت ان تراها».

وقفز اريك على قدمه واقفاً قبل ان تنهي جدته كلامها واتجه نحو الباب وهو يقول:

«طبعاً يجب ان تراها الآنسة!».

وأخذ توماس ويلكوت يهز رأسه بالموافقة مبتسماً لزوجته:

«انت ذكية جداً يا حبيبتي».

وخفق قلب ديانا من الترقب، فقد أحست انها تعرف

ماذا يجري، او على وشك ان يجري. وقالت السيدة ويلكوت واعدة:

«ستجدين فتاة الليل حسب ما تشتهين يا آنسة».

فسألها العجوز:

«هذه لحظة غير متوقعة لك، أليس كذلك؟ ولكن لم يعد لدينا شك من تكون فتاة الليل او من كانت».

فقالت ديانا:

«لا زلت غير مصدقة... ومن المذهل التفكير بأن صورة لسارة دوبريه موجودة بالفعل.. لم أكن أتوقع أمراً كهذا!».

فقال توماس:

«انها معلقة في غرفة الاستقبال الصغيرة منذ سنوات طويلة.. ولم نكن نعرف من هي.. ولكنها جميلة جداً فلم نرغب في ان نفترق عنها!».

ولفت رأسه نحو حفيده وقد عاد الى الغرفة يحمل اطاراً صغيراً في يده الكبيرة وهو يقول:

«انظري يا عزيزتي!».

وناولها الصورة المرسومة بألوان ناعمة شاحبة، وتمتم:

«انها لوجه ملاك! أليس كذلك يا آنستي؟».

وأخذت ديانا الصورة ومعدتها تتقلص من الاثارة... وبدت سارة دوبريه في حوالي الثامنة عشر من العمر وقت رسم الصورة، ولا مجال لانكار جمالها، لها عينان

www.elromancia.com

زرقاوان كبيرتان ومظهر البراءة الذي لابد قد اجتذب الفارس النبيل بقدر ما اجتذبه جمالها.

ودرست ديانا الصورة لدقائق، ثم هزت رأسها ببطء قائلة:

«انها جميلة حقاً... ولكن.. ليس بالجمال الذي توقعته».

وجاء صوت اريك يسألها عن رأيها بدهشة:

«وهل خاب أملك؟».

وتأخرت ديانا لحظات للإجابة:

«لا... ليس خيبة أمل. ولكن أشعر بطريقة ما وكأنني.. وكأنني أعرفها».

وصدرت عن اريك ويلكوت ضحكة سخرية:

«آنستي...! الا تعرفين وجهك؟».

كان قرار السيدة ويلكوت بأن تضع صورة سارة دوبريه في غرفة ديانا، وهذه البادرة غير المتوقعة ضاعفت من سعادتها. خلال اليومين السابقين، أحست ديانا، وبنسبة ما، انها قد خطت حاجز الحذر المبدئي للسيدة تجاهها، ونتيجة لهذا، أحست براحة أكبر.

محاطة بزخارف القصر العتيق، كان سهلاً عليها ان تضيع في القصص عن أعضاء العائلة الأوائل. بجرأتهم، وغطرستهم، ورومانسيتهم، بدو وكأنهم وصف منصف لأريك ويلكوت كما رأته ديانا. ولكن كان هناك اغفال واضح واحد في صراحة الرجل العجوز صدمتها وكان هذا

انه لم يذكر مرة واحدة ابنته الوحيدة سارة الأخرى.. والدة اريك.

وبدا لها من غير المعقول ان تبقى صورة سارة الأولى مع عائلة ويلكوت طوال هذه السنين دون معرفة من هي، ولكن، في نفس الوقت، أعطى هذا الواقع زخماً أكثر لنظرية ديانا. فبالتأكيد لم يجلب تشارلز ستيوارت معه صورة حبيبته الفرنسية ويحتفظ بها لولا انه كان يحبها فعلاً، ومهما حاول اريك ويلكوت ان يلمح، فلا زالت ديانا تنظر الى ذلك الزوج من العشاق، فرقتهما الظروف التراجيدية، ولسوف تصورهما في قصتها على هذا النحو.

بالطبع هناك تشابه بينها وبين الصورة، ولقد استطاعت ان تراه الآن بعد ان ذكر هذا لها، انه تشابه كان يكفي للسيدة ويلكوت كي تتعرف الى فتاة الليل ساعة وقع نظرها على ديانا.

شبهها بسارة دوبريه، وكون اريك ويلكوت نسخة شقراء من تشارلز ستيوارت ويلكوت، قادها للتفكير باتجاه آخر، مثل ما اذا كان نفس الوضع قد يحدث في الزمن والظروف الحاضرة لو انها لم تحرص على ان لا يحدث.. وقبل ان تستدير عن التطلع الى الصورة، لمست الاطار وتمتمت:

«أرجو ان تكون لي قوة ارادة أكثر مما كانت لك يا سارة!».

www.elromancia.com

والتقطت حقيبة يدها عن الفراش، ونظرت خارج النافذة الى الامتداد الواسع لأراضي القصر، تلمع بالخضرة الصيفية تحت أشعة الشمس. وما ان استدارت حتى عادت الى واقعها بحدة لرؤية اريك ويلكوت يمر في الحديقة أمامها.

لقد عرفت العديد من الرجال الجذابين من قبل، رجال وسيمون وأصغر عمراً من اريك ويلكوت، ولكن ولا واحد منهم كان قادراً على بعث الاضطراب في مشاعرها مثله، وبطريقة ما، أغضبها هذا.

وأدركت فجأة انه شاهدها من نافذة غرفتها عندما رفع رأسه ونظر ناحيتها. وكانت نظرته ثابتة مهيبة، تماثل تماماً شخصية الرجل، وأثارت النظرة شعوراً غريباً فيها، حتى انها ضمت قبضتاها بقوة وهي تنظر اليه.

وللحظات اعتقدت انه سيتجاهلها، ولكنه رفع يده بتحية عرضية، مخفضاً رأسه بتحية خفيفة بعد ان لوحت بيدها رداً على تحيته. وبعد لحظة كان يسرع الخطى ليختفي...

كانت السماء قد أمطرت خلال الليل، ولكن الصباح كان يعد بدفىء وشمس مشرقة، وقررت ديانا ان تستفيد من الطقس لتسير نحو القرية ثانية. ولم يكن أمامها هدف محدد أكثر من ان تكون لوحدها فترة ما، ربما تتمكن من استيعاب الجو قليلاً. فلقد أمضت الكثير من الوقت جالسة داخل القصر وبوجود طقس ممتع كهذا، فإنها لن

نتقدم كثيراً في عملها.

. ولم يتبادر الى ذهنها انها عندما تنزل الى الطابق الأرضي، ستقابل اريك هناك، وترددت قليلاً عندما شاهدته يدخل الردهة من خلف المنزل. ودخل الردهة مسرعاً كعادته، فأحست بنبضاتها تتجاوب لرؤيته حتى قبل ان يرفع نظره اليها ليراها واقفة على السلم، وجمد نظره عليها ثم تحول ببطء الى حقيبة يدها، فسألها، وكأن له الحق في السؤال:

«هل انت خارجة يا آنستي؟».

«أجل».

ولمحت مشروع ابتسامة على فمه، وتحولت الى عينيه عندما نظر اليها، وقال:

«وهل ستتذكري بأن تقودي على الجهة الصحيحة من الطريق؟».

فعضت على شفتها غيظاً، وقالت بحدة:

«أنا لن أقود سيارة يا سيد. فسأذهب سيراً».

«الى القرية؟».

وظنت ان مخيلتها قد صورت لها بعض الحدة في صوته، وكأنه يكره الفكرة.. ولم ترد عليه فوراً. فليس هناك من سبب واضح لأن يهتم فجأة بما تفعل، ولا سبب له ليعترض ودفعتها الريبة في دوافعه الى التقطيب.

«في الواقع، كنت أفكر بالوصول الى القرية سيراً على القدمين».

www.elromancia.com

وتركته دون أدنى شك بأنها ترى ان هذا ليس من شأنه. وراقبها بصمت وهي تكمل نزول السلم... ثم قال:

«اهتمامي بالأمر منطقي يا آنسة.. فلست أتصور لماذا ترغبين في السير ولديك سيارة، او لماذا ترغبين في الذهاب الى القرية بينما هناك محلات أفضل للشراء على بعد بضع أميال من هنا».

«ولكنني لا أقصد المحلات. وأنت لست مضطراً لازعاج نفسك بي سيد ويلكوت.. فأنا سعيدة جداً بأن أتجول في المنطقة».

«تتجولين؟».

«أقصد انني أريد ان أشاهد القرية عن كثب.. ولا يجب ان تكون مرتاباً بدوافعي يا سيد!».

وصمت لفترة، ثم رفع رأسه، وتكلم بصوت بارد:

«سأمر عبر القرية في طريقي لزيارة أحد الجيران... والمسافة بعيدة للسير، واذا لم تكوني راغبة في قيادة السيارة يا آنستي، فربما تسمحين لي بإيصالك. اهتمامي هو في صحتك، ولم أكن أعلم انني أبدو مرتاباً بنواياك!».

وكان كلامه تحدياً مباشراً مدعوماً ببريق في عينيه. وأحست بالغباء ثم بالغضب لسماحها له ان يثير مثل هذه المشاعر فيها، ومع ذلك فلم تستطع مقاومة اغراء الركوب في السيارة معه، بدل ان تسير كما كانت تنوي.

وقالت:

«شكراً لك سيد ويلكوت.. بإمكاني الركوب الى هناك ثم العودة سيراً، ويبدو انني تذكرت ان المسافة بعيدة هذا اذا كنت واثقاً انني لن أزعجك».

«أبداً يا آنستي! وهل انت جاهزة على الفور؟».

ومد يده اليها، وللحظة قصيرة ترددت، فنظر اليها بثبات وتحدي، وكأنه يتوقع تراجعها، ولكن عندما سارت الى جانبه، لمس ذراعها بأصابعه.. ولكن اللمسة الخفيفة لبشرتها، سببت رد فعل مربك في مشاعرها وانزعجت من ضعفها أمامه.

في الطريق، أشارت الى المساحات الشاسعة من الأراضي المزروعة وقالت:

«هل كل هذا لكم؟».

«أجل يا آنستي.. كلها لنا!».

وبدا غير مبال للرد، حتى وقد حاولت فتح الحديث معه، فسألته:

«هل هناك شيء خاطيء سيد ويلكوت؟».

فأدار رأسه بحدة، وتفحص وجهها وكأنه يشك في السؤال:

«بأية طريقة يا آنسة؟».

كان من المستحيل ان تضع اصبعها على شيء محدد. ولكن لابد ان شيئاً ما جعله يصمت ولا يتجاوب معها:

«لست واثقة.. ولكنك... اوه.. لابد ان الأمر

www.elromancia.com

محض خيال».

«هذا ممكن يا آنسة!».

رده أغضبها فنظرت اليه بحدة:

«انت لا يعجبك وجودي هنا. أليس كذلك؟ لا تعجبك فكرة كتابتي لقصة عن العائلة، ولا يعجبك ان أكون في القصر! وفي الواقع سيد ويلكوت، انت لا يعجبك شيء عني... أليس كذلك؟».

وأوقف السيارة في المكان المحدد للانعطاف نحو القرية، وأوقف المحرك، ثم التفت لينظر اليها لعدة لحظات قبل ان يتكلم، ثم سألها بصوت خشن صريح:

«أترغبين في ان أكون صريحاً معك يا آنسة؟ أنا لم أجد شيئاً فيك يعجبني... ولكن قد تعجبيني أكثر كامرأة، بدلاً ان تكون غازية لمنزلي متطفلة على شؤون عائلتي!».

صراحته القاسية تركتها مذهولة ترتجف للحظات. لقد طلبت بنفسها رأيه الصريح، ولكنها لم تكن تتوقع ان تكون صراحته جارحة.. وقالت له بصوت يرتجف!.

«انت صريح جداً! ولكنني لست متطفلة سيد ويلكوت.. أنا بكل بساطة باحثة علم اجتماع وكاتبة قصصية أقوم بتأدية عملي، ولا أستطيع التفكير بسبب يزعجك في هذا! فجمع وقائع التاريخ لشيء حدث منذ مئتي سنة من الصعب دعوته بالتطفل!».

«وما سبب مجيئك الى القرية؟».

«ما السبب؟.. بكل بساطة أريد التفرج على المكان. مرة أخرى!».

«وهل كنت هنا من قبل؟».

«مرة واحدة. وبدت لي قرية صغيرة جميلة، وأحسست انها قد توحي الي بجو الكتابة».

«جو؟».

وأعطى الكلمة كل لكنته الاسكتلندية، وعلمت ان هذا لوحده يفضح قلقاً محدداً فيه.. وتابع:

«كنت أظن ان الجو الذي ترغبين فيه موجود في القصر آنستي.. فماذا يمكنك ان تعرفي عن تشارلز ستيوارت ويلكوت في هذه القرية، ولا تستطيعي معرفته في المنزل الذي عاش فيه؟».

«ربما لا شيء.. ولكنني لست ملزمة بالقصر يا سيد!».

«يبدو ان لا!».

«قد أتمكن من معرفة شيء ما من زاوية مختلفة. وقد أعرف شيئاً عبر تاريخ عائلات القرية القديمة، فبعض المعلومات تأتي عادة من مصادر غير متوقعة».

«أتعني انك ستستجوبي القرويين؟».

فاعترضت بشدة:

«انك تجعل الأمر يبدو وكأنه تحقيق.. وكل ما أريده هو ان أتحدث اليهم.. ان أقول لهم ماذا أفعل!».

«لا! لن تبحثي أمور عائلتي مع أهل القرية! لن أسمح

www.elromancia.com

لك بمثل هذا!».

لهجته الحادة أذهلت ديانا فنظرت اليه بعينين واسعتين من الفضول.. وحاولت الرد، ولكن رفعه ليده الضخمة أسكتها، ولمعت عيناه كالجليد، وقال لها بثبات:

«اذا كنت مصرّة على هذا يا آنسة.. فلسوف أتأكد بنفسي من انك لن تعودي مرحباً بك في القصر!».

«اوه.. ولكن لا يمكنك فعل هذا!».

وتحدتها نظرته وفمه المشدود، وقال مؤكداً:

«بل أستطيع يا آنسة! وسأفعل دون تردد اذا أصريت في التطفل على أمور ليست من شأنك!».

فسألته بصوت أجش مرتجف:

«أمور لا شأن لي بها؟ أتعنى تشارلز ستيوارت ويلكوت لورد اوق غلين؟ لست أفهمك يا سيدي! أليس هو سبب وجودي هنا؟».

وبدا واضحاً لها انه في انفعاله قد صرّح أكثر مما كان ينوي، راقبت الانطباع على وجهه بفضول، وهو ينظر اليها لحظت ادراكاً مصدوماً في عينيه، ثم استدار بسرعة في مقعده، ليحدق الى الخارج، منظر وجهه الجانبي قاس، وعلمت بأنه غاضب من غلطته. ولكنه قال:

«الناس هنا لن يخبروك بشيء عنه. لذلك فسيكون طرحك للأسئلة في القرية لا جدوى له آنسة ستيوارت. وأقترح عليك ان تتابعي عملك كما قمت به حتى الآن... وكل شيء له علاقة بتشارلز ستيوارت ويلكوت

متوفر لك في القصر، ولم يرفض أحد حتى الآن مساعدتك في عملك. أليس كذلك؟».

«اوه.. لا.. بالطبع لا. وفي الواقع كان الجميع متعاوناً ولطيفاً.. وأنا ممتنة لكم جميعاً».

ولكن كرهه لسؤالها أهل القرية حيرها. وتمنت لو انها تعرف أسبابه، واستدار ثانية في مقعده لينظر اليها... ومد ذراعه فجأة على ظهر مقعدها ومال نحوها... وطاخت نظرته فوق قسماتها ببطء، مما جعل قلبها يخفق، بالرغم من جهدها للسيطرة عليه... وقال:

«اذن.. لا لزوم لك للسعي الى مساعدة خارجية».

«هذا صحيح كما أظن».

«اذن يا آنسة ستيوارت، ما رأيك بأن تكملي طريقك معي لرؤية السيد دونكان، جارنا. ثم نعود لتتابعي عملك في القصر.. هه؟».

نبرة صوته العميق المتحدي... النظرة في عينيه... ضغط جسده القوي القريب بما يكفي من جسدها ليثير مشاعرها.. كلها كانت في نية اقناعها ان تغير ما في بالها. وانبعث صوت صغير في عقلها يحذرها من ان اريك ويلكوت أكثر من صالح لأن يكون الغاوي المتمرس، والفكرة أعطت الصلابة لمقاومتها بعد ان كادت تذوب أمام تأثيره على قوة ارادتها.

«لا أظن هذا يا سيد.. فأنا أرغب في التفرج الى القرية من جديد.. فلن تطول اقامتي كثيراً سيد ويلكوت

www.elromancia.com

و...».

«اسمي اريك... وستجدين ان الجميع يناديني باسم السيد اريك».

وقوى هذا القول أملها بتفاهم أفضل معه، ولكن الخيبة وقعت لصوتها جداً بعد ان أحست انه أوقفها عند حدها للمرة الثالثة اليوم فقالت:

«فهمت هذا سيد اريك! وكما كنت أقول سيد اريك، لن تطول اقامتي كثيراً، لبضعة أيام على أكثر تقدير، لذلك أحب ان أتفرج على القرية.. كزائرة مهتمة فقط. هذا اذا لم يكن لديك مانع».

«واذا كان لدي مانع؟».

«عندها سأضطر الى ترك الاقامة في القصر والسكن في فندق القرية! الا اذا مارست سلطة الاعتراض هناك ايضاً!».

لو كنا لا نزال أصحاب سلطة يا آنسة، فكوني على ثقة بأنني قد أستفيد من جاذبيتك بطريقة جيدة... مع او بدون موافقتك!».

وحبست ديانا أنفاسها.. انها المرة الثانية التي يشير فيها الى جاذبيتها، وأحست تماماً بالبريق الذي أضاء عينيه، وبقوة جسده المائل نحوها. فاستدارت بسرعة في مقعدها، وفتحت باب السيارة، ثم طوحت بقدميها الى الخارج بسرعة أكثر منه بأناقة، ووقفت عند ممر الأقدام الضيق. وبإقفال باب السيارة وقفت تحدق به، أنفاسها

متسرعة وقصيرة، ولمعان داكن في عينيها الزرقاوين.

ولم تشك لحظة ان قلقه انما يختص بوالدته، سارة ويلكوت ولكن قلقه كشف أكثر من واقع انها تشك في الأمر.. وبأن سارة هذه لم تتزوج اطلاقاً.

ومهما كانت أسباب قلقه، لم تستطع فعل شيء حيال ما يحثها على التأكيد له ان جعل اهتمامها ينصب فقط في تشارلز ستيوارت ويلكوت. فهزت رأسها ببطء وهي تقول له:

«سيد اريك... في الواقع لست مهتمة بأن أتطفل في اي شيء يتعلق بعائلتك.. اهتمامي الوحيد هو في جدنا المشترك الأول. وأعدك ان يكون هو الوحيد الذي سأسأل عنه. وكنت أفكر في انني لو زرت الكنيسة، فإن تسجيلاتها قد تكون...».

فقاطعها بسرعة واختصار:

«دون شك يا آنسة. ولكنك لن تجدي عائلة ويلكوت مدفونة في فناء الكنيسة».

«اوه.. هكذا اذن».

ولم يبادر لتنويرها اين يمكن ان تجد شيئاً عنهم، ولم تجرؤ على سؤاله. صمتها أعلمه انها مضطربة، ولكنه استدار في مقعده وهز رأسه تحية ونداء على المقود. وقال لها:

«يبدو انني لن أستطيع التأثير عليك.. وبما ان الأمر هكذا سأتركك لتطفلاتك يا آنسة!».

www.elromancia.com

«اوه.. ولكن.. لقد قلت لك انني لن أفعل أكثر من التحشر».

فهز كتفيه دون اكتراث:

«عظيم...».

وانطلق فتحركت السيارة الكبيرة في شارع القرية الوحيد، وراقبتها ديانا تبتعد.

كان في القرية بضع محلات صغيرة، بما فيها مخبز، انتشرت رائحة خبيزه اللذيذ مع الريح الخفيفة، مع رائحة القهوة المغرية. ولم يكن في المكان مظلات ملونة كما مقاهي الأرصفة ولا طاولات صغيرة، بل بضع مقاعد خشبية مزدوجة وطاولات خشبية حيث يقضي عجائز القرية أيامهم.

الكنيسة الصغيرة كانت تقف في المقابل، مبنية من حجر الغرانيت المحلي، وسط غابة حقيقية من شجر الولب التي تسرب أوراقها أشعة الشمس المكسرة فوق جدرانها الداكنة الكئيبة.. الصورة بشكل عام كانت هادئة مسالمة وتبعث السرور.

تمثال حجري ديني لأحد القساوسة كان يشارك الكنيسة في عزلتها.. وبدا ان الناس هناك أقل مما كانوا يوم زارت المكان يوم الأحد الماضي. فما من شك ان معظم الرجال في العمل. ولكنها لا زالت هدنا لعدة أزواج من العيون الفضولية وهي تقف أمام الكنيسة الصغيرة ومدفنها.

ولم تكن تحس بأن أحداً قد اقترب منها قبل ان تسمع تمتمات اعتذار من خلفها بلهجة سلتية غليظة. فاستدارت بسرعة مذهولة، لتجد قساً عجوز يقف الى جانبها، نظرته تماثل في فضولها نظرات الرجال والنساء قرب المخبز.. وتساءلت ما اذا كان القس قد شاهد طريقه وحولها مع اريك ويلكوت كما لاحظه أبناء القرية.

وأشار اليها بوضوح انها تقف أمام مدخل فناء الكنيسة تسد له المدخل. وبسرعة تأخرت عن دربه، تبتسم معتذرة وقالت:

«اوه.. أنا آسفة يا أبتي.. لم أكن أدرك انني أسد طريقك».

«لا يا آنستي.. لست مضطرة للإعتذار.. هل ترغبين في التحدث معي.. ربما؟ أنا الأب بيتر يا آنستي، هل يمكن ان أساعدك في شيء؟».

«لست واثقة ان بإمكانك مساعدتي. ولأكون صريحة... كنت بعيدة جداً في أفكاري عندما فاجئتني يا أبتي!».

وبدت الحيرة على الكاهن العجوز:

«وكيف هذا يا ابنتي؟».

وترددت ديانا قليلاً قبل ان تجيب:

«كنت أفكر بأمر مختلف تماماً.. لقد كانت أفكاري مشوشة يا أبتي، والكثير يجول فيها في الوقت الحاضر».

فهز الكاهن رأسه متفهماً:

www.elromancia.com

«آه.. انت قلقة يا طفلتي؟ اذا كانت مشاكلك روحية، فاطمئني، بإمكاني مساعدتك!».

فهزت ديانا رأسها:

«اوه.. لا يا أبتي. شكراً لك.. الأمر ليس هكذا».

«لا...؟ وهل الآنسة انكليزية؟».

«بل كندية».

«نحن لا نحظى بالسواح في منطقتنا عادة، فأهلاً وسهلاً بك».

«شكراً لك ولكنني لست سائحة. في الواقع لقد قدمت الى هنا للعمل... وأنا أقيم في قصر ويلكوت».

وارتفع حاجباه الابيضان بحيرة ونظر اليها بفضول أكبر. وسألها:

«هل الآنسة موظفة في القصر؟».

فابتسمت:

«اوه لا.. فأنا لا أعمل لعائلة ويلكوت.. أنا عالمة اجتماعيات ومؤلفة قصص، وكانوا لطفاء معي في استقبالي ومساعدتي في بحثي».

«وهل تكتبين عن عائلة ويلكوت؟ أجد هذا صعب التصديق يا آنسة! ولكن الأمور تتغير».

ونظرت اليه ديانا بفضول، واهتمامها واضح في عينيها.

«تبدو عليك الدهشة يا أبتي!».

«المرء يشاهد الكثير من التغيير يا آنسة».

فابتسمت وهي تنظر الى الكنيسة الصغيرة وراءه!.

«مثل كنيستك القديمة.. كم أحب التفرج عليها، اذا أمكن هذا يا أبتي، لابد انها شهدت الكثير من التغيرات الدراماتيكية في أزمانها. حتى في آخر أربعين سنة او ما حولها، كما أعتقد. هل تعرضت هذه القرية لأخطار الحرب الأخيرة؟».

وبدا على الأب التفكير، وكأنه يشك في دوافع سؤالها:

«لفترة قليلة يا آنستي».

«وهل كنت هنا؟ لابد انه كان وقت صعب عليك، وعلى الجميع، بالطبع، ولكن على الكاهن أكثر، كما أتصور».

«الحرب صعبة على الجميع يا آنسة».

فابتسمت:

«أجل.. بالطبع. لم أكن قد ولدت بعد».

«بالتأكيد».

سؤالها الثاني كان حتمياً.. ولو انها لم تقصد شيئاً خاصاً فيه، على الرغم من ردة فعل الكاهن عليه.

«عائلة ويلكوت كانت هنا بالطبع. ولابد انهم شاركوا بطريقة ما... أنا متأكدة.. ولا يمكن ان أصدق عدم مشاركتهم!».

فتوقف الأب بيتر فجأة، وقال لها بثبات وهدوء:

«آنستي.. لطالما كانت عائلة ويلكوت محترمة هنا،

www.elromancia.com

وليس من شأني ان أبحث شؤونهم الخاصة مع باحثة اجتماعية!».

وحدقت ديانا به، وقد أدهشها قوة اعتراضه، ثم هزت رأسها وسعت لتغيير الانطباع الذي أعطته اياه، من انها انما تتطفل على شؤون تلك العائلة، وهذا ما حيرها أكثر:

«اوه.. ولكنك مخطىء يا أبتي.. فأنا...».

«أظن ان فضولك يدور حول ابنتهم يا آنسة... ولا يمكن ان أسمح لنفسي بأن أكون مصدر معلوماتك».

وأحست ديانا بأن قلبها يضرب اضلاعها وهي تنظر الى الكاهن قبل ان يتبادر الى ذهنها انكار التهمة.

«سارة ويلكوت؟ ولكن يا أبتي... أنا لا أعرف عنها شيئاً.. ولم يمر ذكرها مطلقاً في القصر».

«بالضبط.. وهكذا جئت سعياً لمعلومات من مكان آخر! لقد خاب أملي فيك يا آنسة.. لقد أسأت الحكم عليك!».

«ولكنك تسيء الحكم علي الآن. فأنا لم أجيء الى هنا للسؤال عنها، بل انني ذكرت بكل بساطة ان العائلة لابد كانت هنا خلال الحرب.. ولقد وعدت السيد اريك ويلكوت ان لا أتطفل الى شيء آخر، وأنا لم أفعل».

وأطرق الكاهن، ثم رفع رأسه مبتسماً.

«سامحيني يا آنسة.. ربما كنت متسرعاً في حكمي... لقد دمل الزمان جراحاً عدة.. ولكن من السهل الشك!».

«طبعاً! في الواقع يا أبتي، أنا هنا لأكتب عن تاريخ جد مشترك أشاركه مع عائلة ويلكوت.. انه تشارلز ستيوارت ويلكوت آخر لورد اوق غلين».

وظهر الارتياح على الكاهن:

«آه.. أجل.. انت هنا لاكتشاف التاريخ اذن! انه جدك أيضاً كما تقولين؟».

«هذا صحيح... السيد والسيدة ويلكوت ساعداني كثيراً. ولكنني أتساءل يا أبتي، ما اذا كان هناك اي شيء أكثر يمكنك قوله لي. ربما أستطيع رؤية مدفنه».

وظهر الاهتمام بمهمتها على العجوز، ولكنه هز رأسه أسفاً لطلبها الأخير وقال بلطف:

«لا يا ابنتي. فلعائلة ويلكوت مدافنهم الخاصة في أملاك القصر، ولكنهم مدفونين هناك... وأنا أقوم بالخدمة ككاهن هناك ايضاً».

وأذهلتها المعلومات للحظات:

«اوه... شكراً لك يا أبتي!».

وابتسمت للقس العجوز. وهي تعرف انه لم يدرك بأنه مع كل حذره، انه أخبرها شيئاً عن رعاياه لم تكن تعرفه من قبل.

وعادت الى القصر، مع انها لم تكلم سوى القس، وأخذ الكثير يدور في خلدها، وليس أقله السبب الذي اقتنع الجميع لأجله من ان يقولوا لها عن وجود مدفن خاص للعائلة حيث سارة ويلكوت مدفونة.

www.elromancia.com

من المتوقع وصول رايان جيبسون، المصور، بعد ساعات من لندن، ليكمل ما جمعته من معلومات بالصور. بعدها لن يكون أمامها سبب لأن تدعي الأعذار لتبقى أكثر في القصر. الأمر كله قد انتهى، ووضعت الأوراق المطبوعة على آلتها الكاتبة الصغيرة في مغلف ثم في حقيبتها استعداداً لارساله بالبريد الى كندا.

في غرفة الطعام البيضاء الجدران في الأسفل، وجدت نفسها برفقة اريك ويلكوت وجده. ولم تكن الجدة قد استيقظت بعد، وافتقدتها ديانا بطريقة ما، فقد أحست انها معرضة للحرج برفقة رجلين مع توقع أخبارهم بأنها راحلة.

وجلس اريك في مكانه المعتاد على المائدة في مواجهتها، وحاولت جاهدة ان لا تلاحظ أشياء فيه تجعلها مضطربة.. أشياء صغيرة، تبدو تافهة، كانت دائماً تلاحظها فيه... مثلاً.. الطريقة التي يكشف بها عن ساعديه المفتولين تحت أكمام قميص ملفوفة الى الأعلى.. وحنجرته وأول ستمترات من صدره العريض البادي من ياقته المفتوحة.

وعزّت نفسها بأنها راحلة، قبل ان تقع في حبه. فهناك العديد العديد من الأسباب التي قد تدفعها للإقامة أكثر في القصر. فهناك لغز سارة ويلكوت، وتكتم وريبة الكاهن في القرية، ثم هناك الصمت المطبق من قبل رجل عجوز يحب الثرثرة عادة حول ابنته الوحيدة... سلسلة

من الغموض، من نصف المعلومات، أثارت فيها غرائز العالمة الباحثة الكاتبة، والتي من المحتمل ان لا تكتشف حقيقتها بعد الآن.

وفوق كل شيء، كانت ترغب في رؤية ردة فعل اريك لخبر رحيلها. فقالت وهم يتناولون القهوة:

«لن أحب الرحيل... لقد تمتعت بوجودي هنا كثيراً.. ولكن يجب ان أسافر في الغد».

وبدا واضحاً ما شعر به توماس العجوز. فقد سألها:

«أتعني انك ستتركينا بهذه السرعة، يا آنستي؟».

فابتسمت ديانا بخشونة:

«أخشى ان يكون هذا صحيحاً سيد ويلكوت.. وكان علي ان أخبركم في وقت أبكر من هذا بدل رمي الخبر هكذا هذا الصباح، ولكن.. بكل صراحة لم أكن أدرك كم مضى عليّ من وقت قبل ان يتصل رايان بي ليقول انه سيصل هذا الصباح.. ولن يطول الوقت به لآخذ الصور.. وبعدها...».

وهزت كتفيها، ولم تكن تعلم معنى هزة الكتف في هذه البلاد، فقد فسرها توماس العجوز بالتردد فسألها:

«ولكنك لا ترغبين في الرحيل؟».

النظرة السريعة التي أطلقتها نحو اريك كانت غريزية أكثر منها مقصودة، ولكن جده لم يفشل في ملاحظتها، ورأت ديانا ضيق عينيه وكأنه يرتاب فأكملت دون تردد:

«لقد تمتعت بإقامتي هنا.. حقاً، أكثر من أي شيء

www.elromancia.com

فعلته في حياتي.. فأنا لم أعمل من قبل مطلقاً في مثل هذه الأجواء الرائعة».

فقال توماس:

«كذلك اكتشفت جدتك الأولى سارة الجميلة».

فابتسمت ديانا وقالت:

«لقد كانت هذه مكافئة رائعة غير متوقعة.. فلم أكن أعتقد انني سأرى أبداً كيف تبدو.. ثم فجأة.. تقدمون لي صورة لها وتعطوني بذلك بعداً مختلفاً لقصتي!».

فقال مبتسماً:

«لم يعد هناك شك بأنها سارة دوبريه.. هه؟ انها فعلاً جميلة كما هي حفيدة أحفادها!».

«لقد كان رائعاً من السيدة ويلكوت ان تلاحظ الشبه لا زلت غير مصدقة!».

ولكن لا مجال للخطأ يا ابنتي... أليس كذلك يا اريك..؟».

وبسؤاله عن رأيه، رفع رأسه، ليتفرس بوجهها ثم قال بعد لحظات:

«أبداً.. مطلقاً».

فتابع العجوز:

«وجه الملاك.. أليس كذلك؟».

وعندما رد اريك، كان هذا بصوت منخفض ولهجة اسكتلندية غليظة لم تستطع ديانا فهمها.. فقالت:

«ها هنا وجه الاختلاف بيننا.. فأنا لا أدعي أبداً انني

ملاك!».

«بالطبع.. وكذلك لم تكن جدتك يا عزيزتي! ومع ذلك فقد تمتعنا بصحبتك يا آنستي، أكنت ملاكاً أم لا. وأنا كاره لأن أراك راحلة!».

«لقد كنت كريماً ولطيفاً معي سيد ويلكوت. وأنا ممتنة لك لكل ما فعلته لأجلي. ولكن من المستحيل المبالغة في استغلال حسن الضيافة، وليس لدي أسباب للبقاء أكثر».

ومد يده المعروقة عبر الطاولة ليمسك بيدها بابتسامة ودية تشرق على وجهه.

«اذن، لماذا لا تبقين لتتمتعي بالمزيد من ضيافتنا يا ابنتي؟ انت لست مقيدة بدوام عمل محدد... أليس كذلك؟ ولديك الوقت الكافي للبقاء معنا قدر ما ترغبين؟».

«اوه أجل.. لدي ما أشاء من وقت».

«وكذلك.. ألست من العائلة؟».

وكان صعباً ان لا تتطلع نحو اريك، وهزت رأسها لتنكر حقها في ادعاء القرابة... وقالت:

«لا أستطيع حقاً ادعاء انني أنتمي الى العائلة سيد ويلكوت!».

فردد العجوز توماس بإصرار:

«آه.. انها مسألة بضعة أجيال! ولماذا لا تمدد ترحابنا بك وأنت صورة طبق الأصل عن فتاتنا (فتاة الليل)؟ وأنا

www.elromancia.com

واثق ان تشارلز ستيوارت ويلكوت آخر لورد لغلين، سينهض من قبره كي يؤنبنا لو اننا لم ننجح في اقناعك بالبقاء وأنت من تشبهين بصورة سلفك الجميلة!».

وكان العرض مغرياً. ولا سبيل لانكاره. ولاحظت من أطراف عينيها ان اريك بدأ يهتم أخيراً بالموضوع، ويراقبها عن كثب، البريق في عينيه قد يكون تحذيراً، فترددت، وقالت للعجوز:

«أنا.. لست أدري اذا كان يجب ان أبقى، سيد ويلكوت. يبدو لي الأمر غير موضوعي بعد مساعدتكم القيمة لي» بأن أفرض نفسي عليكم لمدة أطول. ولابد بالتأكيد انكم ترغبون في ان يكون المنزل لكم وحدكم».

«ولكن كيف يمكن ان نضجر من رفقتك الساحرة؟».

فرمقت اريك نظرة سريعة وقالت:

«ربما... السيد اريك...».

فسارع العجوز للتأكيد:

«ولكن اريك سيكون مسروراً، بالطبع. وكذلك سأشعر بالسعادة لرفقتك يا عزيزتي... فأنت تصغين دون تذمر لقصصي التاريخية!».

فابتسمت ديانا:

«هذا لأنني أتمتع بالاصغاء.. فجدي متحدث لبق وراو جيد للقصص، ولك نفس الموهبة».

فضغط على أصابعها:

«اذن يا آنستي العزيزة... شجعيني على هذا..

أرجوك!».

وأحست بأنها تضعف تماماً كما توقعت، ولم يكن لديها أي عذر للرفض. فعلى كل الأحوال، توماس ويلكوت لا يزال رأس العائلة، ولكنها تمنت لو يفعل اريك شيئاً أكثر ايجابية من جلوسه هناك بصمت يتناول فطاره، وكأنما لا يهتم مطلقاً بما يسمع، ولكنه تحرك أخيراً ليقول بهدوء:

«من الممكن ان تكون الآنسة تفكر بشيء قلته لها يا جدي».

«وكيف هذا؟».

ولامست بسمة شفتي اريك، ولمعت في عمق عينيه:

«لقد كان لدي أسباب تدفعني للشك بأن الآنسة ستيوارت أصبحت أكثر اهتماماً بأمور لا شأن لها بها. وقلت لها انني لن أتردد، اذا ثبت هذا، في ان أرميها الى خارج القصر... ألم تكن هذه هي الجملة التي قلتها يا آنسة؟».

فاحمر وجهها وردت عليه:

«انها الجملة الصحيحة يا سيد».

وصاح العجوز بدهشة وقوة:

«يا الهي! لا أستطيع تصديق هذا!».

فسارعت ديانا للقول:

«وهكذا ترى يا سيدي لماذا ترددت في قبول دعوتك. فلن أرغب في البقاء اذا كان السيد اريك يشك في انني

www.elromancia.com

أتطفل على أسراركم».

فقال العجوز بحزم:

«ليس هناك من أسرار يا آنسة!».

ونظر الى حفيده وكأنه يعتبره قد جن:

«أليس لديك تهذيب وأدب يا عزيزي اريك؟».

فقال اريك بصرامة:

«لا.. وستقول الآنسة لك هذا يا جدي!».

فرد العجوز بحدة:

«اذن، يجب عليّ ان أطلب صفحها! آنسة ستيوارت هل أنا مضطر لأن أحرم من صحبتك بسبب فظاظة حفيدي؟ لفترة قصيرة على الأقل، أرجوك ان تبقي معنا».

ووجدت ديانا من الصعب ان ترفض، مع ان تصرف اريك تركها في شك من مشاعره تجاه الفكرة. كما ان هناك رأي السيدة ويلكوت الذي لم تعرفه بعد، فقد تكون موافقة على رأي حفيدها، وفي الواقع قد يدهشها لو لم تفعل. ولكن توماس ويلكوت تابع ضغطه للرد، فنظرت ديانا الى اريك، ثم هزت برأسها.

لو ان اريك سيعترض فلسوف تتعامل مع اعتراضاته عندما تبرز، فعرض البقاء لأي مدة تشاء كان يشكل توقعات لم تستطع مقاومتها.. فقالت:

«شكراً لك سيد ويلكوت.. سأحب جداً البقاء، اذا كنت واثقاً انني لن أكون...».

«انت على الرحب والسعة ان تبقي المدة التي

تشائين.».

ونظر الى حفيده بنفس نظرة التحدي التى كان اريك يمارسها عادة، وقال:

«لا أستطيع ان أصدق، رقة مشاعري لا تنطبق على حفيدي. ولكن اذا كان لا يوافق على فكرة ان تعيش معنا فتاة جميلة فإنه ليس بالرجل الذي كنت أظنه!».

ولم يرد اريك فوراً، ولكن بدا على وجهه بتعبير غريب، ثم تمتم بشيء الى جده، ومهما كان قد قال، فإن ديانا لم تفهم لهجته الاسكتلندية، ولكن العجوز بدا انه وجد ما قاله حفيده مسلياً، فقد ضحك وهز رأسه، وغمز له بعينيه.

وبحيرة أخذت تنقل نظرها بينهما، وبعد لحظات مال توماس ويلكوت نحوها وربت يدها.

«أرجو عفوك يا صغيرتي، فمن غير المسموح ان نتكلم بلغة لا تفهمينها.. ولكن ما قلناه كان.. كيف أقول هذا؟... تبادل رأي بين الرجال، ولا يجب ترتيده أمام سيدة، مع انه ليس بذيئاً كما قد تظنين. الأمر ببساطة اننا نعرف بعضنا جيداً، ويبدو اننا نعرف بعضنا أكثر مما كنت أظن. فهل ستسامحينا يا آنستي العزيزة؟».

وكم كانت ديانا ترغب لو انها تعرف ما قالاه، ولم تصدق أبداً انها مجرد مزحة، ولكنها لم ترغب في احراج العجوز بطلب كشف ما قاله حفيده. فقالت:

«اوه.. أرجوك لا تعتذر فأنا لا أمانع البتة يا سيدي.

www.elromancia.com

فلكل عائلة مزاحها الخاص.. وهكذا نحن.. ولا أشعر بالغضب!».

«انت لطيفة متفهمة جداً يا آنستي! وأتمنى ايضاً لو انك تفهمي ان من دواعي سعادتي ان تبقي معنا كضيفة لمدة أطول».

«شكراً لك يا سيدي».

ووقف اريك متمتماً بالاعتذار، وعندما وصل الى الباب استدار وقال بسخرية:

«تمتعي بإقامتك هنا يا آنسة».

وأقفل الباب وراءه بشدة.

ولم يتح لديانا فرصة اكتشاف موافقة السيدة ويلكوت او عدمها على اجازتها المقترحة، فلقد وصل رايان جيبسون قبل الغداء بقليل، وبقيت مشغولة معه لتقرير ما سيلتقطه من صور لتعزيز ما كتبته.

ولم تكن تتوقع أي معارضة لبقائها من قبل رايان، لذلك دهشت عندما اعترض بشدة.. فلقد عملت معه لفترة طويلة حتى أصبحا يعرفان بعضهما جيداً، ولكنها لم تكن تدري ان له اهتمام شخصي بشؤونها، ليس على الأقل لدرجة ان يقول لها أنها مخطئة في البقاء، وقطب فور سماعه الخبر. وقال معلقاً:

«أعتقد ان الأمر له علاقة بذلك الشاب الوسيم أليس كذلك ديانا؟».

وتمنت لو تستطيع منع اندفاع الاحمرار الى وجنتيها،

فهي لم تتوقع منه هذا التعليق. وسألته:

«من تعني... اريك ويلكوت؟ اوه.. لأجل السماء يا رايان، لا يمكن ان تكون جاداً في كلامك.. ليس بخصوصه!».

«وهل ستقولي لي انك لا تجدينه جذاباً؟».

وكان واضحاً انه لن يصدقها، فسارعت للاعتراف.

«بالطبع أجده جذاباً.. انه رجل فاتن كما تقول، ولكن ليس لديه الوقت لي أؤكد لك هذا. وبالنسبة لي أفكر به أفكاراً قاتلة أكثر من الأفكار الرومانسية! انه متعجرف وقح ومتكبر أكثر مما تتصور!».

«بل لدي فكرة جيدة. فأنا أعرف نساء وجدن الشيطان متعجرفاً ولا يقاوم.. ومما شاهدته منه وقت الغداء، أستطيع القول انه انسان من الخطر بقاء فتاة جميلة شابة بقربه!».

فضحكت ديانا، فالغيرة واجهة جديدة لرايان... كذلك كانت واثقة ان رأيه لابد ان يصل الى مسامع عائلتها في كندا، وهي مصممة ان لا يصل اليهم اي انطباع خاطىء عن عطلتها المفاجئة.

«أنا لست صغيرة يا رايان، فأنا أقارب الخامسة والعشرين، وقادرة على العناية بنفسي، اذا احتاج الأمر».

«مهما يكن.. اذا كنت ستبقين هنا، فسأستأجر غرفة في مكان ما لأبقيك تحت نظري».

«اوه لا يا رايان.. لا يمكنك هذا! فسيظن آل

www.elromancia.com

ويلكوت...».

«انني هنا لأعتني بك.. وسيكونون على حق، فلن أعود وأتركك هنا في نفس المنزل مع ذلك الزير يا ديانا، فأنا لا أثق به!».

«اذن عليك الثقة بي!».

«أنا أثق بك يا حبي... ولكن هو.. لن أثق به وهو على بعد ميل من اية انثى.. انه خطر.. وكل قصدي ان لا يصيبك منه مكروه».

«لا يا رايان لست بحاجة الى حارس.. وأنا أكره ان يعرف اريك ويلكوت انك هنا لمراقبتي!».

«وهل تظنين ان هذا قد يشل اسلوبه؟».

«لا.. بل سيبعث فيه السعادة! ولن أسمح بأن يضحك عليّ لمجرد انك تظن بأنه يرسم خطة عليّ! وأنا أفضل ان تعود الى البلاد وتتركني أتمتع بإجازتي!».

فهز رايان رأسه:

«ما من مجال يا حبي.. على الأقل سأكون قريباً منك اذا صحت طلباً للمساعدة».

وأثرّ فيها ان تكون موضوع وفاء واخلاص... ولكن فكرة ان يعرف اريك ويلكوت بدوافعه للبقاء، والضحك عليها لأجلها جعل معدتها تتقلص. وتابع رايان كلامه!.

«ديانا.. استمعي الي.. أنا أعرف تماماً نوعية اريك ويلكوت، أكثر مما تعرفيها انت، واذا بقيت لوحدك هنا قد تتعرضين للأذى.. وأنا أعرف هذا».

فضحكت بارتجاف ولم تكن واثقة انها ستقول الحقيقة:

«انا لست من نوعيته يا رايان. وليس عليك ان تقلق!».

فضحك بخشونة:

«ولكنك امرأة ألست هكذا؟ وقد تقعين في حبه، أليس كذلك يا حلوتي؟».

ولم تستطع الانكار:

«ربما يحدث هذا لو سمحت لنفسي.. ولكنه لن يحدث اذا بقيت حذرة.. ولن يكون سهلاً زعزعة ثقتي بنفسي كما تتوقع يا رايان».

فحدق بها للحظات ثم تنهد:

«أوكي.. ليس هناك ما أستطيع فعله، ما عدا ان أكون موجوداً للملمة ما قد ينكسر منك».

«انت ألطف رجل عرفته يا رايان. ولكنني فعلاً لا أحتاجك كحارس.. وأستطيع تدبير أمري مع اريك ويلكوت، وأعدك بهذا».

وغادر رايان بالرغم من امتعاضه الواضح. ولكن بالرغم من كل تأكيداته، شكت في انه قد يجد اي عذر للعودة الى انكلترا، فهو لم تبدو عليه السعادة في السفر، هو من النوع الذي لا يتزحزح عن ما يصمم عليه.

بعد رحيله، أحست ديانا بشعور ضياع غريب لم تستطع سوى ان ترده الى التحذيرات الخطيرة التي أطلقها

www.elromancia.com

لها.. ولكن شيئاً لم يتغير، ما عدا انها أصبحت الآن مجرد ضيفة فقط في القصر، ولكن هذا التغيير الطفيف جعلها تحس بالاختلاف.

كان السيد والسيدة ويلكوت جالسان على مائدة العشاء عندما دخلت ذلك المساء غرفة الطعام، وجذب اريك لها كرسياً لتجلس، مما جعل شعره الأشقر وهو يحني رأسه يلامس كتفيها، فنظرت اليه بسرعة لتشكره. ولاحظت اعجاب توماس ويلكوت بثوبها الأحمر، فمال نحوها وهمس مبتسماً:

«الو.. الانكليزي... انت فاتنة جداً يا عزيزتي!».

فهمست له:

«شكراً لك سيد ويلكوت.. انت رائع لرفع معنوياتي!».

فسألها العجوز:

«وهل انت بحاجة.. لرفع معنوياتك؟ بالتأكيد لا يا آنستي! لابد انك مضطربة لفراق صديقك السيد جيبسون؟».

فهزت السيدة ويلكوت رأسها موبخة:

«توماس! انت تحرج الآنسة!».

فسارعت ديانا تؤكد لها:

«اوه لا.. لا بأس، فأنا لا مانع لدي حتى الحديث عن رايان، يا سيدتي.. فأنا معتادة على العمل معه.. ولقد كان مريضاً، ولم أستطع شيئاً سوى انتظاره.. ومن

المؤسف انه خسر الأيام الجميلة التي قضيتها هنا، ولكنه مرتبط بعمله ولا يستطيع أخذ اجازة مثلي».

«وهل تعرفينه جيداً؟».

«جيداً جداً كما أعتقد، مع انه يدعي انه يعرفني أكثر مما أعرف نفسي!».

فهز توماس رأسه الابيض، ورفع اصبعه ليؤكد على كلامه:

«آه... انها علاقة قلوب... أليس كذلك؟».

ومرة أخرى نظرت اليه زوجته موبخة، ولكنها لم تقل شيئاً هذه المرة. وابتسمت ديانا للعجوز.

«علاقة حب تقصد؟ اوه لا سيد ويلكوت.. ليس هناك شيء من هذا بيني وبين رايان. انه مجرد صديق. وصديق طيب. وزميل عمل.. وهذا كل شيء».

ولم تكن واثقة انه صدقها، ولكن اريك كان يراقبها من الناحية الأخرى للمائدة، ثم سمعته يقول بصوت هادىء:

«يجب ان تفكر يا جدي.. فلو ان مثل هذه العلاقة موجودة بينهما فهل كانت ستزعج نفسها في اقناعه بالسفر من دونها؟».

والتفت اليها والسخرية في عينيه:

«لقد قمت بمجهود كبير لاقناعه بالسفر من دونك أليس كذلك يا آنستي؟».

«لم أجد مبرراً لبقاءه.. وكان من السخف ان...».

www.elromancia.com

فقاطعها اريك:

«ولكنه لم يكن يرغب في تركك، أليس كذلك؟».

وأحست بأن السيد والسيدة ويلكوت ينظران اليها بفضول، فأجابت ببطء.

«لقد كان يفضل البقاء».

ولاحظت ان عينا اريك برقتا بالسخرية:

«كحارس لك؟».

«انه يشعر بواجبه تجاه النساء بشكل طبيعي.. وهو عادة يسافر معي ويهتم بكل الأمور، وهو يظن انني غير قادرة على رعاية نفسي في بلاد غريبة».

فقال توماس:

«انه قلق عليك يا آنسة. وهذا أمر متوقع عندما يكون الرجل... ربما يحب مرافقته الجميلة ولو قليلاً... أليس كذلك؟».

وضحكت ديانا، فقد وجدت ان من غير المجدي اقناعه ان رايان لا يحبها، ولكنها أحست بالارتباك لأن موضوع الحديث كان يدور حول وضعها العاطفي. فقالت بحزم:

«لا أنا ولا رايان واقعان في الحب حسب علمي سيد ويلكوت. لقد عملنا معاً منذ مدة طويلة، ولكن لم يكن هناك دليل على اي شيء.. فنحن مجرد أصدقاء».

«هكذا اذن! انت تدهشيني يا عزيزتي! فلنأمل ان يبرهن الشباب عندنا بأنهم أقل تخييباً للأمل بالنسبة

للحب.. هه؟».

ما كان يعنيه يكفي ديانا ليجعلها تنظر بسرعة نحو اريك. وأحست بالارتباك عندما وجدت نفسها تحدق في عينيه الفولاذيتين الرماديتين.. وقالت للعجوز:

«اوه.. أنا لست مهتمة بهذه الأمور سيد ويلكوت... فليس لدي وقت يكفي... للحب وأنا أعمل!».

فذكرها العجوز بلطف:

«ولكنك لا تعملين الآن يا صغيرتي».

وتبعت دون قصد مسار نظره، دون ان تعرف ماذا تفعل.

وأحست بالتواء حاد في معدتها عندما شاهدت الابتسامة على فم اريك والتقت ثانية بالسخرية في عينيه...

ربما كانت قد تسرعت قليلاً...

ربما كان عليها ان تترك رايان يبقى قريباً منها... فتلك النظرة على وجه اريك ويلكوت كانت مقلقة مربكة دون أدنى شك...

وانتابها اليأس من ضعفها...

مر أول أسبوعين من اجازتها بسرعة، حتى انها لم تصدق ان مثل هذا الوقت الطويل قد مر. وكان توماس ويلكوت مضيفاً رائعاً، وبدا انه فعلاً يتمتع بصحبتها. وكان راوياً موهوباً، وأمضت معظم وقتها معه، تصغي لقصصه، وتتفرج على النفائس التي يحتفظ بها.

www.elromancia.com

والداها كانا يعملان معاً في الأثريات، ولهذا كان لديها فكرة جيدة عن قيمة العديد من الأشياء الجميلة التي عرضها عليها، وتساءلت ما اذا كان مضيفها يعرف قيمتها. ولم يبدو على اي من السيد والسيدة ويلكوت العلم الكافي بمدى الثراء الذي يكمن في مثل هذه الأشياء الفنية الرائعة، التي يحتفظان بها تحت سقف قصرهما.

واعترف السيد ويلكوت بأنه لا يعرف تماماً قيمة ما يملك في السوق الحالي.. وكان هذا اعتراف أذهل ديانا بعد ان أدركت مدى الدقة التي يحتفظ بها زويها بمثل هذه الأثريات، والمجموعة في القصر لابد ان تساوي أضعاف أضعاف ما يمتلكه أهلها في عملهما.. ومع ذلك فلا يبدو ان أحداً لديه فكرة عن قيمتها، وفي بعض الحالات، حتى عن وجودها، الى ان لفتت هي النظر اليها.

ولم تجد صعوبة تذكر في التوافق مع مضيفها، ولكن ما لم يكن متوقعاً هو ان تجد اهتماماً مشتركاً في الطبخ يجمعها بالسيدة ويلكوت. وسرها ان تجد موضوعاً يمكن لها ان تتوافق فيه مع السيدة العجوز.

ومضى عليها الآن في القصر أكثر من أسبوعين بقليل.. وفكرت وهي تنزل ذلك الصباح الى القطار انه ربما حان الوقت للتفكير بالعودة الى وطنها ومنزلها.

وكانت الردهة الكبيرة مهجورة عندما وصلتها،

فتوقفت، كما تفعل عادة، أمام لوحة مفضلة لديها معلقة على جدار السلم. وكانت قد لاحظتها منذ بداية اقامتها هناك، عندما كانت لا تزال تكتب قصة تشارلز ستيوارت ويلكوت، ولكن يومها لم يكن لديها الوقت الكافي لغير موضوع عملها. ولقد أصبح سهلاً عليها الآن ان تهتم أكثر باللوحة، الأكثر اثارة للإعجاب، بشكل غامض، من لوحة اللورد اوق غلين.

وكانت مدبرة المنزل برانده قد أخبرتها ان اللوحة تمثل لورداً من العائلة أقدم من اللورد الأخير، انه دونالد آدمز ويلكوت، ولم يستغرقها وقت طويل لتقرر ان هذه الصورة تحمل شبهاً أقرب بكثير لأريك ويلكوت.

واستدارت فجأة على عقبيها وقد نست انها ترتدي صندالاً رقيق الكعبين وطويلهما. ولكن كعب حذاءها الأيسر انهار تحتها فجأة حتى انها أحست بالعجز وقد بدأت تتهاوى فوق بلاط درجات السلم الرخامية... صرختها كانت قصيرة وبالكاد مسموعة، فلم يكن أمامها الوقت الكافي لتدرك ماذا يحدث... ولكن ذراعاها تطوحتا في الهواء بحثاً عن شيء تتمسك به، وبدلاً من الرخام المالس الجامد، التقطت قماشاً صوفياً، شيء ناعم ومطاط.. تمزق بين يديها ليكشف صلابة وحرارة جسد آدمي تحته... ولم تصب بأذى.. بل توقفت فجأة، وانخطفت أنفاسها عندما واجهت شيئاً أقل صلابة من رخام السلم، وزوج من السواعد، تمسكان بها

للحظات تجاه صدر عريض مفتول العضلات.

ومرت لحظات قبل ان تعي ان القماش الذي تمسكت به ومزقته، لم يكن سوى قميص من الكتان الأزرق، أصبح مفتوحاً حتى أسفله، وهي تحاول انقاذ نفسها، وقد تركت آثار أظافرها على البشرة السمراء تحته، آثار حمراء بدت وكأنها بفعل مخالب قطة.

«أيتها القطة الصغيرة!».

الصوت عرّف عن صاحب الذراعين دون عناء.. وأحست ديانا بقلبها يخنق بقوة وجنون في صدرها، وهي تكافح لتقف على قدميها. ونظرت الى اريك ويلكوت مذهولة في البداية، ولكنها لم تندهش لرؤية الضحك في عينيه وهو ينظر اليها. وتابع كلامه بسخرية:

«يجب ان تقلمي مخالبك ايتها القطة الصغيرة. انظري كيف (خربشتني) عندما أمسكت بك بين ذراعي».

«أنا آسفة..! لقد أحسست بنفسي أقع.. وقد أمسكت بأول شيء وصلت له يداي».

لقد رأيتك تقعين وأنا كذلك أمسكت بك».

وضحك.. فقالت:

«أنا سعيدة لوجودك، وإلا لتدحرجت الى أسفل السلم..».

«بالتأكيد... وانظري ما هي مكافئتي يا آنسة!».

«لقد قلت لك انني آسفة!».

كانت تدافع عن نفسها وردها كان أكثر حدة مما

قصدت. ولكن بدا من المستحيل ان يكون ردها عليه بارداً، خاصة في مثل هذا الوضع. ووضعت يديها فوق يديه، وبالرغم من ارتجافهما تمكنت من زحزحة يديه عن خصرها، ثم تراجعت بحذر فوق السلم.

«الا تحسين بالرعشة؟».

فهزت رأسها نافية بسرعة دون حتى ان تفهم قصده.

«أنا بخير تماماً.. شكراً لك، ولكن من الأفضل ان تدعو برانده لتضع لك شيئاً مطهراً على هذه الخدوش... في حال ان تكون...».

وقاطعها برفع يده:

«هراء... لقد تخدشت من قبل!».

«اوه.. ولكن الخدوش قد تلتهب أحياناً».

فلمعت عيناه، ورفع حاجبه:

«وهل تظنين نفسك قاتلة يا آنستي؟».

ورفضت ان تنجرّ الى حديث قد يكون مثيراً، فخطت جانباً دون ان تجيب، محاولة تجاوزه والعودة الى غرفتها، فهي بحاجة لتغيير الصندال.. ، كذلك فهي متشوقة لأن تبتعد عن الرفقة المربكة بأسرع وقت ممكن. فقال لها:

«ولكنك لن تتمكني من الوصول بسلام الى غرفتك وأنت ترتدين حذائك المكسور».

وقبل ان تستطيع الحراك رفعها بين ذراعيه ليحملها صاعداً بها السلم. فصرخت:

www.elromancia.com

«أنزلني!».

ودفعت بيديها فوق صدره العريض دون جدوى. وأحست بالحرارة تتدفق الى وجنتيها، ولو ان أحداً شاهدها هكذا، فالسماء وحدها تعرف ما قد يظن. وابتسم اريك ابتسامة ساخرة:

«انت لا تزنين الكثير يا آنسة».

ثم ضحك، وزاد ضغط يديها على صدره لتجبره على انزالها.

«أستطيع ان أسير لوحدي يا سيد.. فهل تسمح بانزالي الى قدمي أرجوك!».

وسمعت صوت أول فردة من الصندال فوق الرخام، ثم الثانية، وقاومت لتتخلص نهائياً من ذراعيه.. ولكن دون جدوى. ولكنه لم يتركها، بل عاد لحملها ثانية وهو يقول:

«اجمدي.. هل تريدين كسر عنقينا معاً ايتها المغفلة الصغيرة؟».

ووصل بها الى باحة السلم، حيث انزلها ووقف يحدق بها. فقالت بحدة:

«شكراً لك يا سيدي!».

وملست ثوبها بيدين ترتجف مثل ورق الشجر، دون ان تنظر اليه، فلم تكن بحاجة لأن تعرف انه يحدق فيها.. وسألها فجأة:

«كم مضى على اقامتك معنا يا آنسة؟».

فردت بسرعة:

«مجمل الوقت؟ حوالي ثلاثة أسابيع».

«ألهذه المدة الطويلة؟».

ورفع حاجباه عجباً. مع انها لم تعرف ما اذا كان يعتبر المدة طويلة جداً أم لا أم انه لم يكن يدري بمرور الوقت بهذه السرعة. وقالت وهي تنظر الى أصابع قدميها الحافية:

«في الواقع، كنت أفكر بأن أقول للسيد ويلكوت هذا الصباح انني سأجعل هذا الأسبوع آخر اجازتي، وأعود الى بلادي في عطلة الأسبوع القادمة. فلقد أمضيت اسبوعين، وهذا يكفي».

«أليس لديك وقت فراغ آخر؟ أم انك سئمت الحياة الهادئة آنسة ستيوارت؟».

وكان سؤالاً متحدياً. ولكنها رفضت الانجرار الى سجال وردت عليه بصرامة:

«لقد تمتعت بالعطلة كثيراً.. ولكنني أعتقد ان ثلاثة أسابيع وقت طويل بما يكفي لفرض نفسي على ضيافة اي كان، مهما كان المضيف كريماً».

«ومضيفك كريم ويريدك يا آنستي! فجدي لا يسأم من رفقة فتاة شابة جميلة. وخاصة انها تصغي الى قصصه باهتمام ومتعة ظاهرة!».

«ولكنني أتمتع فعلاً بقصصه. وأظنه تمتع فعلا بوجودي معه.. أليس كذلك؟».

www.elmanara.com

«بالطبع.. وكذلك جدتي. لقد سحرتها الى جانبك كذلك!».

«وأنت لا يعجبك هذا!».

وأدركت انها أخطأت، ولكنها لم تكن تستطيع التراجع فتابعت:

«انت لا تزال تكره بقائي هنا.. أليس كذلك؟».

«أكره؟ ألم يقل جدي بأنني لو لم أكن أرحب بوجودك هنا، فأنا لست الرجل الذي يؤمن بي؟».

«يا سيدي...».

هزة رأسه أصمتتها، وتابع وكأنها لم تتكلم:

«أولم تقرري بعد بأنني فعلاً الرجل الذي يؤمن بي؟».

وطافت نظرته الصريحة المتفحصة ببطء في قسماتها، ثم امتدت يده الكبيرة لتنزلق بخفة في شعرها الأسود، وأخذت أصابعه تدلك رأسها، ثم تستريح عند مؤخرة العنق، لتتلمس بشرتها بحركات مثيرة بعثت القشعريرة في جسدها.

«سيد اريك...».

ولكنه قاطعها.

«الفرق بيننا يا آنستي ان جدي يثق بك.. أما أنا فلا!».

وأرادت ان تتحرك مبتعدة عن تأثير مداعباته المخدرة للأعصاب، ولكنها بطريقة ما فقدت القوة لهذا.. فقالت

بهمس:

«تثق بي...؟ ولكنني.. لا أجد سبباً لعدم ثقتك بي... ما هو الأمر الذي تخاف ان اكتشفه؟».

وتصلبت الأصابع المداعبة فجأة، وأصبحت قاسية كالحديد، تمسك بعنقها بينما ينظر اليها بعينين ضيقتين كلهما برود:

«أنا لا أخاف شيئاً يا آنستي... ولكنني لا أحب الأشباح!».

«الأشباح؟».

وحدقت به وكأنها منومة مغناطيسياً، في الوجه الملوح بالشمس تحت ذلك الشعر الأشقر الكثيف الأشعث، والعينان اللتان تركزتا فجأة على فمها برغبة جعلتها ترتعد، وجذبها اليه ببطء، الى ان أصبح فمه على قيد أنملة من فمها، وأحست بأنفاسه الحارة على شفتيها.

وللحظات لم يفعل شيئاً سوى التحديق في عينيها، وكان صعباً عليها، وهو بهذا القرب منها، ان تحكم على نواياه من التعبير على وجهه، ثم، وبسرعة، انقض عليها ثم تراجع، فتشتت كل مشاعرها، وقال بصوت هامس محذر:

«احذري ان تثيري الأشباح يا آنستي. فأنا لا أحب الأشباح!».

واستدار منصرفاً وهي لا تزال مسمرة بالذهول. والله وحده يعلم ما هي تلك الأشباح التي تخافها، ولكنها

www.elromancia.com

متأكدة بأن سارة ويلكوت، والدته، هي واحدة منها.

التهديد بسقوط المطر وحده ما قرر عنها ان تلجأ الى مكتبة مضيفها بدلاً من الخروج. ووجدت الكثير من الكتب القيمة بين المجموعة، وكانت طريقة ممتازة لتمضية ذلك الصباح المقبل.

كانت المكتبة هادئة بالطبع. وأحست بإحساس فضولي للاستكشاف وهي تتطلع من حولها الى الجدران المرصوفة بالكتب. ربما تجد هنا شيئاً عن أسلافها، عن تشارلز ستيوارت ويلكوت، بين مئات الكتب هذه، وبالتأكيد لا ضير في ان تفتش. ومكتبة بهذا الحجم لابد ان يكون فيها ما يعطي كل المواضيع.

الكتاب الذي أخذته عن أحد الرفوف، كان ملفوفاً بجلادة حمراء أنيقة، وصفاحته مزنرة بالذهب. ولكن عنوانه هو الذي شد انتباهها أكثر من جماله.. فقد طبع على غلافه بأحرف ذهبية رائعة كلمات (قصر ويلكوت) وبأحرف أصغر تحتها اسم المؤلف، والذي لم تكن هويته تهمها في تلك اللحظة، فحقيقة وجود كتاب مكتوب عن القصر نفسه شيء لم تكن تتوقعه، وأخذت تقلبه بين يديها بشوق.

من المشكوك فيه ان يكون الكتاب قد قرأ أكثر من مرة، فصفحاته كانت ملتصقة معاً وصعبة التفريق، ولكنها مزقت الصفحات بدقة وحذر بقدر ما يسمح نفاذ صبرها وكان الورق من النوع الثمين الفاخر، ولابد انه كلف

الكثير، والأرجح ان يكون طبعة خاصة... وكذلك، وكما العديد من النفائس التي يغص بها القصر، فإن المالكين الحاليين للقصر لا يدرون حتى بوجوده.

وأحست بالرضى لاكتشافها هذا، فجلست في مقعد مريح له ذراعان، وبدأت تقلب صفحات الكتاب. ووجدت الكثير من الصور بين صفحات الكتاب كلها مأخوذة بالطريقة القديمة، وبعضها رسم يد، الرسوم التوضيحية أعطتها فكرة أفضل عن بنيان القصر أكثر مما تم لها في اقامتها هناك. وخفق قلبها بقوة عندما قلبت صفحة أخرى لتجد رسماً عرفت انه قسم من الرواق المختصر لأعلى السلم، أو ما يسمى بمنبسط السلم. وأظهر الرسم جداراً مكسواً بالخشب وراء رأس السلم مباشرة، ونافذة في نهايته. وكان الرسم واضحاً لدرجة ابراز فتحة، وليس باباً، في ذلك الجدار المكسو بالخشب أوضح لها سرّ تمكن تشارلز ستيوارت ويلكوت من الهرب تحت أنف مطارديه، ادارة أخرى لصفحة جديدة جعلت المعلومات الكافية تتوضح أمامها... رسم أصغر لأحد الزخارف في الحائط، جعلها تحدق به جيداً لعدة دقائق الى ان اقتنعت انها ستتعرف اليه.

لم يكن هناك أحد في المكان عندما خرجت من المكتبة. ولم تستطع الا ان تحس بالذنب وهي تتسلق السلم الرخامي نحو الرواق الذي يعلوه... ربما يجب عليها ان تخبر أحداً قبل ان تبحث عن الخشب

المزخرف. ولكنها أسكتت ضميرها القلق بحزم.

ولم يكن سهلاً عليها ايجاد المكان، ولم تكن تدري كيف يعمل باب تلك الفتحة السرية... ولكنها ضغطت بكلتا يديها على الزخرفة البارزة بعد تعرفها اليها... وبعد لحظات تراجعت شاهقة بدهشة... تحدق بالفتحة المنفرجة فجأة والتي ظهرت في ذلك الجدار المكسو بالخشب. وكانت الفتحة تقود الى ممر ضيق تنبعث منه رائحة العفن والرطوبة وعتمة السنين، ولكن الاكتشاف هذا كان مذهلاً ومثيراً.

نظرة نظرة أولى دفعتها الى جسارة أكبر، وخلال لحظات، كانت قد جمعت ما يكفي من شجاعة لتخطوا فوق الحافة المرتفعة قليلاً وتحدق في العتمة الكاحلة. واستدار الممر الضيق المظلم بها نحو اليمين، وما هي الا خطوات قليلة حتى بدا لها بضع سلمات تتجه الى الأسفل. ولكنها لم تتقدم أكثر فمن المستحيل هذا دون ضوء ينير لها الطريق. فعادت الى غرفة نومها لتبحث عن وسيلة انارة، ولم تجد سوى شمعتين في شمعدانين فضيين، فأشعلت واحدة منها.. وبدا نور الشمعة الشاحب دون جدوى في ضوء النهار، ولكن لابد انه سيعطي الانارة الكافية في ظلمة ذلك السرداب.

وأدركت بعد ان عادت للدخول الى السرداب مدى الاثارة الدرامية لفعلتها.. وبالتأكيد، هذا أكثر شيء غير مألوف فعلته في حياتها كباحثة وعالمة... وقد لا يكون

هناك مخرج آخر لهذا السرداب، واذا كان هذا صحيحاً فإن مصيرها لا يحمل اي تفكير آخر فيه. خاصة ان المدخل أقفل بطريقة آلية خلفها ويبدو انه لا ينفتح سوى من الخارج.. ولكن تشارلز ستيوارت ويلكوت، وجد مخرجاً له، وكذلك هي ستجد.

وبدا لها السلم لا نهاية له، ولكن الدرجات انتهت أخيراً لتفسح المجال الى ممر مقنطر، فتوقفت للحظة تحدق أمامها قبل ان تتابع سيرها. السماء وحدها تعرف اين هي الآن. ولكنها كانت أكيدة انها لا زالت في داخل حدود القصر، ولابد ان الممر أمامها يقود الى خارجه، الى مكان ما في الحدائق ربما.

وبوصولها حتى هنا.. لم يكن هناك جدوى من رجوعها، فتقدمت تجر قدميها الباردتين فوق حجارة الممر، واخيراً وصلت الى حائط مسدود.

ولم يكن أمامها هنا شيء مميز كنتؤ منحوت مثل ما كان على المدخل. بل مجرد حلقة حديدية معلقة على قنطرة حجرية، لم تتحرك الا بعد ان وضعت الشمعة من يدها وشدت بها بكلتا يديها.. القرقعة الناتجة، جعلت قلبها يدق بقوة وخوف. ولكن في النهاية تحرك الجدار الصلب الى الخارج مبتعداً عنها، فتنفست الصعداء، وأغمضت عينيها وهي تتنشق الهواء النقي.

ولم تشاهد أحداً من حولها. ولم تندهش لرؤية نفسها داخل كنيسة صغيرة، وخمنت من رائحة المكان ان

www.elromancia.com

الكنيسة لا تستخدم دائماً، وأحست بالثقة ان هذا المكان يحتوي على مدفن العائلة الخاص.

وكان حولها صمت جامد يبعث القشعريرة، ويحمل حزن السنين، ولكنها رفضت ان يسيطر هذا الجو عليها... وتابعت السير منجذبة الى الاثارة الوحيدة للحياة في تلك الكنيسة الصغيرة: شموع مضاءة وفازة مليئة بالورود.

حول الجدران كان هناك لوحات محفورة تحمل أسماء وتواريخ، ذكرى أفراد من عائلة ويلكوت رحلوا. ولكن واحداً فقط منها كانت الشموع مضاءة حوله، وفازة نحاسية مليئة بالورود الصيفية. وكان يشبه المزار الصغيرة أكثر من كونه لوحة كالأخريات... وأحست بتوق لتعرف صاحبه.

ولم يكن في الكنيسة ضوء سوى نور الشمس ونور الشموع تحت اللوحة. فوقفت ديانا على أطراف أصابع قدميها لتقرأ كلماتها. وبدت اللوحة جديدة نسبياً، وأقل زخرفة من الأخريات.. وقرأت عليها:

«سارة فورستر» وبكلمات أدق تحت الاسم:

« الابنة الوحيدة المحبوبة لتوماس ويلكوت وزوجته ايزابيل... ولدت عام ١٩٢٠ ـ وماتت عام ١٩٤٢».

وكان هذا وضعاً بسيطاً ولكن مؤثراً الى أبعد مدى. خاصة عندما يحصي المرء السنوات القليلة ما بين الميلاد والموت. وأخذت ديانا تنظر الى اللوحة لفترة طويلة،

محاولة تصور ما قد يكون حصل لسارة الفانية، والتي هي والدة اريك... متسائلة كذلك لماذا يعاني كل هذا الألم ليمنعها من اكتشاف شيء عنها. وأحست بالانجذاب الى أمر غامض طالما أحاط باسم سارة، متسائلة ما اذا كانت ستكتشف أبداً حقيقتها.

وتنهدت بصمت، ثم استدارت، تستعد للعودة الى القصر عبر الحدائق بدل العودة الى السرداب.. وهي تستدير.. خرج شخص من الظلال قرب الباب المقنطر المنخفض... ووقف يواجهها وفي عينيه وميض لامع غاضب فولاذي.. وقال اريك ويلكوت بصوت منخفض مليء بالشر:

«هكذا اذن يا آنستي... انت لا زلت تتطفلين على أمور ليس من شأنك!».

«اريك!».

خرج الاسم من فمها كهمس الذهول، حتى انها لم تلحظ البساطة غير المعتادة لتلفظها بالاسم. بل حدقت به وكأنه شبح نهض من بين عشرات هذه الأسماء على الجدار من حولها. وأخذ قلبها يضرب بقوة حتى أحست بانقطاع أنفاسها وهي تقف في الظلال الباردة للمعبد الصغير.

ولم يعطها اي وقت لتقول شيئاً غير اسمه. وطافت عيناه فوق جسدها النحيل. ولاحظ آثار خيوط العنكبوت والعفن من جدران الممر فوق تنورتها وعلى شعرها

www.elromancia.com

الأسود. وكان على خدها غبار كان يروي قصة. وعلمت انها ليست مضطرة لايجاد كلمات تشرح بها من اين اتت.

«اذن لقد اكتشفت ممر الفرار؟».

واتجهت عيناها وهي تهز رأسها الى المدخل النصف مخفي للممر خلفها، وأحست وكأنها وقعت في الفخ:

«أنا.. أنا.. لقد وجدته صدفة.. ولست أرى ان باستطاعتك تسمية هذا بالتطفل.. سيد اريك!».

فرد عليها وعيناه الفولاذيتين تقدحان بالغضب:

«لو كنا نرغب في ان ترى كنيستنا الخاصة لكنا أخبرناك عن وجودها.. وبما اننا لم نفعل يا آنسة، فعليك ان تستنتجي اننا لا نرغب ان تتطفلي على شؤوننا الخاصة!».

وقالت ديانا بصوت متوتر منخفض:

«اوه.. أرجوك ان تصدقني... أنا لا أحاول التطفل في اي شيء! اهتمامي الوحيد ينحصر في تشارلز ستيوارت ويلكوت.. ولا أحد غيره!».

وطافت عيناه الرماديتان فيها مرة أخرى، وبدا واضحاً انه لم يصدقها. وقال بصوت مريح:

«اهتمامك بتشارلز ستيوارت ويلكوت انتهى لحظة اتمامك لقصتك... ولكن لا يا آنسة، فالحقيقة التي لا تدحض انك كباحثة من صميم عملك التطفل!».

«لا...!».

وجاء صوتها أعلى مما قصدت، ونظرت حولها في الكنيسة الفارغة، وعضت على شفتها:

«لا أستطيع الجدال معك هنا.. فهذا ليس مناسباً!».

ولف اريك أصابعه القاسية حول ذراعها وجذبها معه عبر باب منخفض مقنطر، ليخرجا الى نور شمس ساطعة، وتنشقت رائحة النضارة والنقاء بعد مطر هادىء ومسالم.

المنطقة كانت محاطة بأشجار كثيفة، ربما يعود سبب عدم ملاحظتها وجود الكنيسة لوجود هذه الأشجار.. حول الكنيسة نفسها كانت الأرض خالية نظيفة. ونظرة واحدة جعلتها تعرف ان هذا المكان هو المدفن الخاص الذي أخبرها عنه الأب بيتر.

وأحست ديانا ان المكان لا يزال غير مناسب لاثارة الخصام. ولكن بدا واضحاً ان اريك لم يكن يشاركها الرأي.. فلقد استمر في الامساك بها واستدار اليها صامتاً للحظات، ثم قال:

«ربما تحبين متابعة.. خصامنا هنا!».

وهزت رأسها ببطء:

«انا أفضل ان لا أتخاصم معك أبداً.. فالأمر غير ضروري.. و...».

فصاح بها:

«الأمر محتم وأنت تصرين على اغضابي! فلديك موهبة في فعل الأخطاء. وأن تكوني دائماً في الأمكنة

www.elromancia.com

الخاطئة!».

وسارعت للدفاع عن نفسها.

«هذا رأيك انت فقط!».

«ولكن رأيي هو المهم في النهاية يا فتاتي! ولا تنسي هذا، وإلا فستجدين الأسوأ لك... وتأكدي ان بإمكاني طردك من منزلي لو قررت هذا!».

واستبد بها الغضب!.

«لماذا لا تفعل؟ انا هنا بناء لدعوة من السيد ويلكوت.. ويبدو انك انت من تنسى!».

«من المستحيل ان أنسى يا آنسة!».

ورفعت ديانا رأسها وقالت ساخرة:

«اوه لا.. بالطبع! فأنت لن تقبل بي هنا بأي ثمن.. أليس كذلك؟».

وشدّت بذراعيها الى جانبها، مستعدة لما تعلم السماء ما هو منه... ولكن بالطبع ليس لصوت ضحكته الجافة:

«انت مخطئة يا آنسة! ولكنك ما كنت وجدت الوقت الكافي للتطفل لو كنت هنا بناء لدعوتي!».

وجذبها الى ما بين ذراعيه.. ضاغطاً جسدها على قساوة جسده الذي لا يلين بقوة كتمت أنفاسها. وبيده الضخمة أمسك بمؤخرة رأسها، وتداخلت أصابعه في شعرها الطويل بينما شدتها الأخرى اليه.

وقبل ان تتنفس، كان فمه يطبق عليها مجبراً رأسها على التراجع الى أصابعه حتى ان أحاسيسها صدمت.

وأصبحت متدوخة بحيث لم تستطع الا ان تئن في اللحظات الأولى... ولكنها أدركت ببطء كم انها راغبة في ان تترك نفسها تتجاوب مع تهجمه على أحاسيسها... فبدأت تقاوم.

عندما تراجع عنها في النهاية، كانت مقطوعة الأنفاس تقف محدقة به، وجنتاها تحترقان، وشفتاها ملتهبتان، حتى انها رفعت يدها لتلامسهما بأطراف أصابعها.

كان يجب ان تقوم بأي نوع من الاحتجاج، ولو جسدياً، ولكنها وقفت جامدة، بينما كان ينظر اليها وعتمة تبعث الرعدة في عينيه، لم تشاهد مثلها من قبل.

واستدارت على عقبيها بسرعة ثم أسرعت راكضة عبر ظلال أشجار الكستناء الخضراء، دون ان تكون واثقة انها تتجه في الاتجاه الصحيح، وكل همها ان تبتعد عن تأثيره المدمر عليها.

كانت صدمتها أكبر من دهشتها عندما عرض عليها توماس ويلكوت ان تعمل له. وحدقت ديانا به لعدة ثواني قبل ان ترد:

«أعمل لك سيد ويلكوت؟.. أنا.. لست أفهم تماماً كيف أستطيع... أعني ماذا يمكن ان أعمل لك؟».

في اليوم السابق كانت قد أبلغته بقرار مغادرتها، ولم تستطع تصور سبب تجشمه عن عرض العمل عليها لمجرد تمديد اقامتها.. ربما كان يرى بوضوح مدى تجاوبها مع جاذبية اريك التي لا تنكر، ولديه أسبابه الخاصة للتشجيع

www.elromancia.com

علاقة بينهما.

ومهما كانت الأسباب، فقد كانت ديانا مترددة في قبول اي شيء قد يتسبب في اتصال دائم لها مع اريك. انه خطر.. تماماً كما قال رايان، ولكنها لم تدرك ذلك سوى بالأمس... متعجرف.. قاسي الفؤاد، ويأخذ اي شيء يرغب فيه... ولكن من المشكوك فيه ان تكون له عواطف عميقة.

ولمست أصابع العجوز المعروقة يدها بخفة، يذكرها بأنها لم تعطه بعد رداً... فابتسمت وهزت رأسها فقال لها:

«لطالما عبرّت عن قلقك لنقص الأمن هنا.. وأنا لست من الكبر بحيث لا أقبل النصيحة يا ابنتي!! ولقد قررت ان مجموعة الأثريات عندنا.. كلها.. يجب ان يوضع بها لوائح، كما نصحتني. وعندها قد نتمكن من أخذ الحيطة حولها بطريقة أفضل.. أليس كذلك؟».

وأحست بالسعادة الحقيقية لأن شيئاً سيتم عمله أخيراً. وقالت:

«اوه يا سيدي.. كم انا مسرورة.. فهذا أمر يجب بالضرورة عمله!».

«أوافق معك يا عزيزتي، مع انني لم ألحظ ضرورة الأمر الى ان ذكرته لنا... اذن آنسة ستيوارت، بما انك اهتممت بنفائسنا.. فلماذا لا يكون لك الأفضلية لوضعها في لوائح كاتالوج؟».

«أتعني انك تريدني.. تريدني ان أفعل هذا؟».

«ومن أفضل منك؟ هل ستقبلين؟».

«انه لطف كبير منك يا سيدي.. ولابد ان تعرف انني أحب كثيراً ان أقوم بهذا العمل.. ولكن...».

والتفتت بسرعة عبر الغرفة لتجد اريك يقول مقاطعاً:

«ولكن يا جدي.. الآنسة ستيوارت باحثة اجتماعية. فهل من الممكن ان تكون العالمة مهتمة في العمل بالافيكات؟ كذلك فأنا واثق ان الآنسة تتوق للعودة الى وطنها بعد طول هذه المدة.. أليس كذلك يا آنستي؟».

رغبته الواضحة في الخلاص منها أمر وجدته مؤلماً لها. ولكنها بسرعة كتمت مشاعرها واستجابت للتحدي:

«بالعكس يا ار... سيد اريك. انا مهتمة جداً بالفكرة!».

ابتسامة مختصرة أعلمتها انه عرف بزلقة لسانها، وسخرت عيناه بتغطيتها المتسرعة، وقال:

«حقاً... آنسة ديانا؟».

وتجاهلت سخريته:

«سأكون سعيدة بالتجربة.. أنا لست خبيرة، ولكن أظن انني أعرف ما يكفي لأن أضع كل شيء في لوائح بشكل سليم ولكن هناك شيء واحد يجب ان أتأكد منه أولاً...».

ونظر اليها توماس متسائلاً:

«بكل تأكيد...».

www.elromancia.com

واستدارت مفتشة عن زوجته لتطلب رأيها قائلة:

«سأحب العمل هنا.. ولكنني لن أفعل الا بموافقتك... سيدتي».

وبدت الدهشة على السيدة العجوز.

«أنا؟».

وأحست ديانا بعطف غريب نحوها، انها امرأة فخورة ووسيمة، وتعطي الانطباع بأنها متغطرسة، ولكن ديانا مؤخراً اكتشفت بأنها انما تذعن لرأي الرجلين... فهما نادراً ما يطلبان رأيها في شيء. وابتسمت ديانا لها:

«بالطبع يا سيدتي. فأنت الأكثر علاقة بإدارة المنزل. ووجود شخص آخر يهمك بقدر ما يهم اي كان.. أليس كذلك؟ فهل يزعجك كثيراً وجود غريبة وسطكم لفترة أطول؟».

ولم تقل ايزابيل ويلكوت شيئاً لعدة ثواني... ولاحظت ديانا كم كان حفيدها يراقبها عن كثب.. وكان في عينيه وميض غريب مزعج وتساءلت عما يفكر به. وتكلمت العجوز في النهاية:

«انا واثقة ان لك المقدرة الضرورية للعمل لزوجي، آنسة ستيوارت. ولسوف يسعدني ان تكوني معنا... وربما... ربما عندما لا تكوني منهمكة بالعمل نستطيع مناقشة أمور المطبخ معاً.. أليس كذلك؟».

وأحست ديانا بالتأثر لطلبها رفقتها. وابتسمت لها بحرارة قبل ان تستدير لزوجها.

«اذن سيد ويلكوت.. أرغب في قبول العمل.. اذا كنت واثقاً انك تؤمنني على كل هذه الأشياء الجميلة الثمينة».

وكانت تفكر بما قاله اريك من انه لا يثق بها ولو ان جده يفعل. وتساءلت ما اذا كانت ثقة العجوز هذه ساذجة كما ألمح حفيده، وقال توماس:

«ولماذا لا أئتمنك يا عزيزتي؟».

فقالت:

«ربما لا يجب الثقة بغريب بطيبة نفس هكذا... فقد يقول بعضهم انك تخاطر... يا سيدي!».

وكأنه فهم ما تعني. فنظر بدوره الى حفيده، وهز رأسه:

«يا ابنتي العزيزة.. لو كنت تنوين سرقتنا لفعلت هذا خلال هذه المدة. بإمكانك أخذ أشياء من منزلنا والعودة بها الى بلادك دون ان يدري بها أحد، والحال لم يتغير حتى الآن. لا يا عزيزتي... لطالما اعتبرت نفسي حاكماً ممتازاً على النفسيات وكذلك... ألست واحدة من هذه العائلة؟».

ولم ترغب ديانا في توريط نفسها بمسألة القرابة، ليس واريك يراقبها، ولكنها ابتسمت، شاكرة له ثقته وقالت:

«لسوف أتمتع بعملي كثيراً.. مع انها مسؤولية كبيرة!».

وغمز لها توماس بعينه مبتسماً ببراءة الطفل وقال:

www.elromancia.com

«بكل تأكيد... وسترين انها كذلك مهمة طويلة.. أليس كذلك يا عزيزتي؟».

بالكاد بدا ممكناً ان أسبوعاً قد مرّ منذ بدأت عملها الجبار في أرشفة مجموعة أثريات القصر، فهي لم تكمل بعد تسجيل محتويات غرفة واحدة. جزء من وقتها كان ينشغل بزيارات من توماس ويلكوت.. ولكن التأخير الأكبر كان بسبب نقص ثقة ديانا بنفسها في هذا المجال، فقد كانت لا تستطيع من مجرد نظرة واحدة، ان تحكم على عمر وقيمة اي قطعة.

وكونها قليلة الخبرة، فقد احتاجت الى التركيز أكثر، وأن تأخذ وقتاً أطول لتقييم كل قطعة على حدة. وتمنت ساعتها لو انها تستطيع الاستعانة بمهارة والديها.

نظرة الى ساعة يدها أعلمتها ان هناك وقتاً يكفي ليحين موعد الغداء. ورفعت اللائحة من يدها على الطاولة أمامها. وحررت أصابعها فوق نعومة الطاولة الأثرية، فحتى الطاولة التي تستخدمها في عملها سجلتها في اللائحة... طاولة مكتبة متقنة الصنع دقيقة الأرجل، مسطحة بعروق اللؤلؤ بروعة جمالية.

ولم تسمع صوت فتح الباب. بل فتحت عينيها مجفلة عندما سمعت يتكلم من خلفها مباشرة.. وسألها اريك ويلكوت:

«هل انت ضجرة يا آنستي؟».

كانت الطاولة بمواجهة النافذة، وهذا يعني ان نظرها

سيغشى عندما تفتح عينيها فجأة في نور الشمس المتدفق منها. ولم تستطع ان تحدد سوى شكل جسده، ومع انها لم تشاهد بتعبير وجهه، الا انها تذكرت رأيه القائل بأنها غير مهتمة بالعمل في الأثريات.. فسارعت للقول:

«لست ضجرة ابداً.. كنت فقط ارتاح للحظات».

تلك الآهه الصغيرة القصيرة، عنت الكثير، ولم تدر تماماً ما حولت في طياتها. وتعودت عيناها على الضوء، فشاهدت قسماته بوضوح، ونظرت اليه باستغراب، محاولة معرفة سبب وجوده هنا.

«هل تريد استخدام الغرفة؟».

فهز اريك رأسه، وجلس دون اعتناء على طرف طاولة أثرية جميلة في الزاوية، وهذه حرية تصرف نظرت اليها بتوتر وعدم موافقة.. ورد عليها:

«كنت أبحث عنك آنستي».

كانت تحس بالانزعاج أحياناً انه لا يزال يدعوها بشكل رسمي آنستي دون مشاركة اسمها.. وتصورت ان هذه الرسمية مقصودة لابعادها وإيقافها عند حدها.

ولاحظ استغرابها، فوضع ساقاً فوق ساق وتابع:

«وهل يجب ان يكون هناك خطب لو سعيت لرؤيتك آنستي؟».

فقالت بقلق:

«من غير المعتاد ان تبحث عني.. هذا كل شيء، ماذا تريد مني... سيد اريك؟».

www.elromancia.com

ولاحظ ترددها قبل تلفظ اسمه بشكل رسمي فقال لها بصوت عميق هادىء:

«يوماً ما يا ابنتي.. سوف تنسين نفسك وتناديني اريك!».

فردت بسرعة:

«وهل ستدفعني لهذا؟ اوه.. لا يا سيدي!».

«أدفعك؟».

«انت تفهم تماماً ما أقصده».

فضحك وقال موافقاً:

«آه.. بكل تأكيد، ولكن ما أسأل عنه هو مدى ثقتك بأنني سأفعل... ان أدفعك دفعاً لاستخدام اسمي مجرداً! وأظن انك تقصدين بالرسميات ان أبقى... كيف أعبر لك؟... ان أبقى بعيداً عنك، أليس كذلك؟».

ولم يترك لها مجال استرداد رباطتها لجرأة كلامه.. بل ضحك بنعومة وهز رأسه مكملاً كلامه:

«تبدين واثقة من نفسك.. فهل انت معتادة على مثل هذه الأوضاع يا آنستي؟».

«لست بحاجة لمن يرعاني!».

وأدارت ظهرها له، فقد وجدت ان النظر الى عينيه أمر لا يحتمل. وتطلعت عبر النافذة الى الخارج. وكان قلبها يخفق بقوة وهي تقول له:

«لم تقل لي بعد لماذا جئت تفتش عني... سيد اريك».

وسمعته يتحرك، وصوت حذائه الثقيل فوق السجادة، وفي لحظة كان يقف خلفها مباشرة... حرارة قربه أرسلت نبضاتها الى الجنون، ورأسها الى الدوار المشوش، وسمعته يقول قرب أذنها، وأحست بأنفاسه على عنقها:

«لقد ترددت ثانية.. أصعب عليك ان تتذكري مناداتي اريك.. يا صغيرتي؟».

وردت عليه دون ان تلتفت:

«ليس أكثر صعوبة من مناداتك لي آنستي!».

«وهل تكرهين هذه الرسميات؟».

واستدارت ببطء، وبتردد ظاهر. وكما توقعت كان ينحني خلفها وهي جالسة، وأقرب اليها مما تصورت، وتعبير عينيه مزعج، وقالت:

«لا أعترض على الرسميات مطلقاً. اذا كانت هذه هي الطريقة التي تفضلها. وفي الواقع، انها فكرة جيدة في هذه الظروف!».

وأحنى رأسه أكثر نحوها، حتى انها استطاعت ان تشم رائحة الغبار على رأسه وثيابه، وكان ينظر مباشرة الى شفتيها بنفس الرغبة التي توقف الأنفاس كما المرة الأولى، وقال هامساً:

«هذه الظروف؟ وهل هي ظروف انت قادرة تماماً على التكيف معها يا آنستي؟».

فتراجعت عنه ووقفت، ولكنها لم تبتعد أكثر من حدود

www.elromancia.com

الطاولة.. وهمست مقطوعة الأنفاس:

«انت تعرف تماماً ما أقصده».

ووضعت يديها خلفها على ظهر المقعد، وأحست بالارتياح لدعمها. ولكنه مد يداه الكبيرتان ووضعهما خلفها فوق يديها، مثبتاً أصابعها بقوة أذهلتها.

وهذا ما جعله أكثر اقتراباً، والضغط الخفيف لجسده عليها أثار احساساً غريباً في نفسها صرفته عن تفكيرها بسرعة. لقد كانت تتوقع منه هذا، ولكن ما كانت لا تتوقعه هو ردة فعلها.

وسألها بصوت سرى كالرعدة في أوصالها:

«لقد حذرك صديقك من نوعية الرجال الذي أنا منهم، أليس كذلك؟ ومع ذلك بقيت هنا يا آنستي؟ وأظنك الآن نادمة على ما فعلتِ!».

وأبقت ديانا نظرها منخفضاً، ولو ان هذا كان بقي النظر الى عنقه وأطراف صدره، وردت بصوت هامس مرتجف:

«لست نادمة بالمرة. لقد كان أمامي فرصة لقضاء اجازة وأخذتها».

«وهذه المرة يا آنستي؟ لماذا بقيت هنا؟ كي تسجلي مجموعة أثرياتنا؟ اوه.. لا. مع انك استطعت اقناع جدي بهذه الأسباب!».

وقاومت ديانا لتخلص يديها من قبضته، ولكن أصابعه الفولاذية بقيت تأسرها. وتنفست متوترة وهي تنظر اليه:

«انا.. لقد قبلت بعمل لجدك. وأنت تعلم ان هذا هو كل ما في الأمر... انت تعلم انني هنا لأقوم بعمل. واذا كان في خلدك سبب آخر... سيد اريك.. فأنت تتحلق نفسك!».

«أيتها القطة الصغيرة!».

وعرفت تماماً ان اريك ويلكوت لم يتكلم هكذا بهدوء مع امرأة من قبل. ثم أحنى رأسه فجأة ليلامس بفمه البشرة الرقيقة تحت اذنها. فتصلب جسدها، ولم تستطع فعل شيء حيال ردة الفعل البدائية، وغمرها مزيج من الرائحة الرجالية التي تشمل قليلاً من عطر بعد الحلاقة والغبار ورائحة التراب والمزرعة.

ومالت الى الخلف محاولة تجنب تلك المداعبة المثيرة على عنقها، ولكن هذه الحركة مترتبة أكثر، وإدارة وجهها عنه لم تردعه.. فقالت متأففة:

«هل تسمح أرجوك...».

وانقطعت كلماتها بحدة عندما أطبق عليها وأرجع رأسها الى الوراء بضغط رأسه. وانخفضت رموشها غريزياً لتقطع منظر عينيه الرماديتين الفولاذيتين. وحاولت، لوقت قصير، ان تدير رأسها ثانية قبل ان تلتف ذراعاه حولها، لتسحقها على جسده القاسي.

عندما رفع رأسه في النهاية، كان لينظر اليها باشتهاء جعل القشعريرة تسري فيها كالنار في الهشيم. والتوى فمه بابتسامة صغيرة... وبمشاهدتها لتلك الابتسامة

www.elromancia.com

علمت انه كان يعرف تماماً كيف ستكون ردة فعلها على عناقه.

«هل برهنت لك يا آنستي.. انك غير قادرة على العناية بنفسك كما تظنين؟ وأن صديقك محق في تحذيرك من الرجال أمثالي؟ كان يجب عليك العودة مع حبيبك.. أيتها الشابة!».

«رايان ليس حبيبي! وأرجوك ان تتركني!».

وشدت دون جدوى بالذراعين الذين يشدانها، ولكنها لم تحرر نفسها الا لأنه تركها. وأحست بالغضب، وظهر هذا في بريق عينيها الزرقاوين، ولم تستطع الابتعاد لأنه كان يقف ملاصقاً لها، فحاولت ان تقول بصوت ثابت:

«هل تسمح لي ان أمر؟ أريد انهاء بعض الأعمال قبل موعد الغداء».

«بكل تأكيد..».

وتراجع قليلاً بما يسمح لها بالمرور مع انها اضطرت لأن تلامسه بقوة وهي تفعل. ثم سألها:

«وبعد الغداء يا صغيرة؟».

«سأعود الى هنا لأعمل، بالطبع.. فلماذا تسأل؟».

«لأن لدي جدي فكرة بأنك ستتمتعين بالتفرج على البساتين.. وسأفهم تماماً اذا لم ترغبي في قضاء بعد الظهر في رفقتي، بالطبع، ولكن عليك تفسير هذا لجدي.. فسيجد صعوبة في فهم عدم رضاك عن الفكرة!».

وحدقت به لحظات، لو كانت تعلم ماذا يريد عندما دخل، لكانت حضرت الرد بدل ان تقف محدقة به هكذا.

رغباتها الطبيعية وجدت قضاء الوقت معه أمر لا يقاوم. ولكن صوت التعقل البارد، وتحذيرات رايان، أخبرتها كم ستكون متسرعة لو قبلت، خاصة بعدما حدث الآن.

ولكن دافعاً غريباً، وإحساساً بالنزوع للمشاكسة، قرر عنها ان تقبل، لمجرد ان ترى كيف ستكون ردة فعله:

«هذا لطف كبير من السيد ويلكوت للتفكير بي... وسأحب ان أذهب.. هذا اذا كنت لا تمانع بالطبع!».

وشاهدته يقطب. وأزاح نفسه عن زاوية الطاولة ليقف ناظراً اليها، ليؤكد هذا شكها انه لم يكن يتوقع ولا يرغب في الرد الذي أعطته... وسألها:

«وهل ترغبين في الذهاب معي؟».

وفهمت الآن لماذا تصرف ما تصرفه معها.. تلك المداعبات المغوية والعناق كان يقصد بها ردعها، ان يدفعها للقلق من وجودها معه.. ولكن الآن، وقد عرفت السبب أحست بالغضب.. وبرغبة لقبول الدعوة لمجرد انه لا يرغب بها. فقالت وعينيها تبرقان بالتحدي:

«سأحب الذهاب.. الا اذا.. يا سيد اريك.. وجدت الأمر محرجاً اذا شوهدت معي».

وأخفض رأسه بتحية قصيرة، كانت بالنسبة لها تعبيراً

www.elromancia.com

عن كراهيته للوضع، وقال:

«انا في خدمتك يا آنستي!».

«الا تمانع؟».

ولم يؤكد، او ينفي رغبته، بل نظر الى ثيابه المغبرة وقال بصوت يخلو من اي تعبير:

«أعتذر لحالة ثيابي.. ولكن الطقس حار ومغبر في البساتين، وأنا مثلك، لدي عمل أقوم به.. وسأجعل نفسي متوفراً لك كدليل يا آنستي... لو قبلت بي كما أنا. وأرجو ان تكوني جاهزة عند الساعة الثانية، أرجوك».

ولاحظ تقطيبها.. ثم هزت برأسها موافقة.

لقد أصبحت الآن ملتزمة، مع انه يمكن ان يغير رأيه... النزهة قد تكون ممتعة ولو ان عليها الاعتراف ان بعد ظهر كامل برفقته قد يكون أقل متعة اذا كان مزاجه معكراً، لو انها عرفت مسبقاً بأنه لا يرغب في مرافقتها، لكان هذا أكثر ارضاء لها... وأحست بأنها غير سعيدة، ولاحظت خطواته العريضة نحو الباب بعينين قلقتين.

تقاسم ديانا فكران حول الغاء النزهة ام لا مع اريك. ولكن جده بدا متفهماً على ضرورة خروجها حتى ان قلبها لم يطاوعها على احباطه.

وبالرغم من اصراره على قبولها به كما هو، لاحظت وقت الغداء ان اريك غيّر ملابسه، بدا شعره مرطباً، مما

يشير الى انه استحم، وبدا بالتأكيد أقل تغيراً وتوحلاً من قبل.

من تصرفاته خلال الغداء، علمت انه يتمنى لو انها تغير رأيها. ولكنها نظرت اليه بعناد وهما يتجهان نحو السيارة.

وقاد السيارة الى أكثر من كيلو متر بقليل خارج القرية.. ثم أوقف السيارة على مرجة أيبست الشمس عشبها قرب الطريق وخرج. وامتدت أمامهما حقول من الكرمة على كلا جانبي الطريق. وتساءلت ديانا ما قد يفعل شخص يتنزه بين الكروم كي لا يظهر جهله بها.

ونظر اليها بعينين ضيقتين، وعرض السيارة بينهما:

«أرجو ان تكوني قد ارتديت حذاء مريحاً. فمن هنا سنبدأ السير يا فتاتي!».

«اوه.. لا تقلق.. لقد ارتديت حذاء يمكنني السير به لعدة كيلو مترات لو اضطررت».

واستدارت حول السيارة، وأبرزت له حذاء منخفض الكعبين وعادي، وسألته:

«هل هذه مناسبة؟».

فهز رأسه دون رد، وأحست بقلبها يخفق عندما مد يده ليمسك بذراعها.. ولكن هذا كان بقصد ادارتها الى الاتجاه المطلوب، ثم تركها فوراً، قال باختصار:

«تعالي... لدي أشخاص كثيرون لمقابلتهم.. وأرجو ان لا تسأمي!».

«اوه.. أنا واثقة انني لن أسأم!».

ونظر اليها بعينين ضيقتين قبل ان يبدأ سيره عبر الحقل، وسارت وراءه تحاول اللحاق به قدر استطاعتها ولن تكون نزهتها ممتعة كما يبدو، لو استمرت على هذا المنوال. وسألته فجأة:

«كنت تأمل ان أرفض.. أليس كذلك؟ او انني قد أغير رأيي؟».

والتفت اليها بسرعة وقال:

«كان يجب ان أعرف انك لن تفعلي. مع انك لن تتمتعي كثيراً في هذا الحر. والمكان مغبر وغير مريح... أعرف هذا، فقد كنت هنا طوال الصباح».

ومد يده مرة أخرى ليمسك بذراعها وكأنه يقودها وغرز أصابعه في لحمها حتى انها شهقت وتابع:

«ولكن لابد ان لك أسباباً خاصة. أليس كذلك يا قطة؟».

وجذبت ديانا ذراعها منه بقوة، ولكنها ترنحت وكادت تقع، وأخذت تفرك بيدها الآثار التي تركتها أصابعه الغاضبة على ذراعها.. وقالت له:

«لقد آلمتني...! ثم لا تناديني بالقطة!».

«ولكنني أناديك بالقطة الصغيرة.. فأنت صغيرة جداً وناعمة لأن تكوّني قطة شرسة، يا جميلتي!».

وتجاهلت كلامه.. ثم سألت:

«ولماذا لم ترغب في اصطحابي؟ فأنا لن أعوقك!

وبإمكانك التصرف وكأنني غير موجودة! اذهب وافعل ما تريد، فلن أمانع ان أجد طريقي بنفسي!».

«جدي يتوقع مني ان أريك ما انت راغبة في رؤيته وتعرفين هذا».

وبدا انه يتوقع منها ان تستشف شيئاً في جوابه أكثر من الكلمات، فنظرت اليه باستغراب:

«أنا لا.. لا أعرف شيئاً، ولا حتى لماذا انت كاره هكذا لأخذي معك لرؤية الحقول!».

ولم يرد، بل نظر اليها نظرة ذات معنى من زوايا عينيه.. ثم رد على تحية عابرة من أحد العمال... وتركزت عينا الرجل عليها وهي تسير قرب اريك، وأثرت ابتسامته المتفهمة على ثقتها بنفسها.

ووجدت صعوبة في البقاء ملاحقة بخطوات اريك فوق الأرض الكثيرة الحجارة، فخطواته كانت أعرض مما تستطيع ملاحقتها، وبشكل محتوم تقريباً، ترنحت فجأة ووقعت.

وللحظة استلقت مقطوعة الأنفاس ووجهها الى الأرض. وأحست بالغباء، لأنها أدركت ان الحادثة كان يشهدها الرجل الأسود العينين وزملاؤه العمال. ولكن قبل ان تلتقط أنفاسها وتتمكن من الوقوف، امتدت يدان قويتان لتوقفانها بثبات على قدميها.. وسمعت صوت اريك قلقاً جزعاً دون توقع:

«هل أصبت بأذى؟».

كان بإمكانه مد يده اليها ومساعدتها على الوقوف، او الامساك بذراعيها، ولكن ان يحملها تماماً وذراعاه حولها أعطى الاهانة أكثر للوضع. ووجدت صعوبة في ان تسامحه لهذا. وأحست بالنظرات من حولها وبالهمسات في الجو المغبر، واحمرت وجنتاها وهي تنفض الغبار عن بنطلون الجينز. وردت عليه بصوت متوتر رفيع:

«لا.. لم أصب بأذى.. ليس جسدياً على الأقل!».

«ماذا؟».

وحدقت به بثبات، الى ان اقتنعت انه لم يفهم قصدها.. فهزت رأسها:

«لا يهم.. ولكن أرجوك اذهب من دوني.. لا أستطيع اللحاق بخطواتك. وأحس بالحرارة وانقطاع النفس».

«سريعاً هكذا؟».

وحدق بجسدها النحيل في بنطلون الجينز والقميص القطني الرقيق، فالتوى فمه ساخراً وتابع:

«لابد ان جدي أساء الحكم على قوة تحملك، يا عزيزتي! هل ترغبين ان أوصلك الى القصر قبل ان أتابع عملي؟».

ولم ترغب في الاذعان الى ابتزازه، ولكنه محق حول قدرتها على التحمل، فالسير عبر الحقول الحارة المغبرة أمر مستحيل عليها. وغير ممتع بكل تأكيد.

«انت تفضل هذا، أليس كذلك؟».

ولم يلزم اريك نفسه، بل قال:

«أنا لا أحاول التأثير عليك يا عزيزتي! اذا رغبت في المتابعة.. فستتابع».

ونظرت من حولها، فلاحظت ان العامل الشاب الذي حياه اريك قبل قليل، لتجده ينظر اليها، وفي لحظة سريعة أغمض أحد عينيه غامزاً، ونصف ابتسامة على فمه.. وكادت تنفجر بالضحك لجرأته تحت أنف رئيسه مباشرة. ودون ان تدري لماذا نظرت الى ازيك وقالت بصوت لم تحاول اخفاء السخرية منه:

«ربما أحد عمالك يستطيع مرافقتي.. بدل ان.. آخذ كل وقتك سيد اريك».

وللحظات حدق بها دون ان يفهم... ثم نظر حوله الى ما بين صفوف الكرمة ليرى ان الشاب لا يزال يعطي نصف اهتمامه فقط لعمله. فضاقت عيناه، وظهر التوتر على أطراف فمه، ثم عاد لينظر اليها، وقال بصوت قاس أجش:

«اوه.. لا، يا فتاتي... لن أدع أحداً من عمالي يلعب دور الدليل لفتاة جذابة الجمال مثلك! ولو رغبت في المتابعة، فسأبقى معك، أما العمال فلديهم أشياء أخرى ليعملوا بها!».

«لقد فكرت فقط...».

ولم يعطها وقتاً لتكمل. بل لف أصابعه القاسية فوق ذراعها وجذبها معه لعدة أمتار قبل ان يتركها.. ولأول

بضع خطوات تابع سيره الحثيث العادي، ولكنها عندما تمتمت بالاحتجاج، أبطأ من سيره، واستطاعت بسهولة ان تسير معه.

ولم يقل الكثير لها، بل سار على طول الحقل، يتوقف هنا وهناك ليكلم الرجال والنساء العاملين في الكرمة. وبعد فترة وقد تعبت من تجاهلها، قالت محتجة:

«انت لا تزيد أبداً تنويري عن شيء.. أليس كذلك؟».

«وهل تريدين حتى ان أشرح لك شيئاً؟».

«أجل.. بالطبع! ولهذا أنا هنا.. أليس كذلك؟».

«آه.. طبعاً».

مرة أخرى كانت كلماته تعني أكثر مما هي عليه، فسارعت للقول:

«حول ما أنا هنا لأجله سيد اريك.. مهما كانت الأفكار الأخرى التي في ذهنك!».

فهز كتفيه:

«أفكار؟ اذا كنت تريدين معرفة شيء عن العنب يا صغيرتي.. فلك هذا».

«شكراً لك!».

وأخذ يشرح لها بشكل مطول عن أنواع العنب وأنواع ما ينتجه العنب، وأهمية الأرض والتراب في انتاج نوعية محددة من الفاكهة للانتاج... وتابعت ما يقوله بأفضل ما تستطيع. وأخبرها عما تبقى من عمليات الزراعة في

الحقول الأخرى، وكيف نوعية انتاج المزارع تراقبه الدولة عن كثب، وفي بعض الحالات. تفاصيل دقيقة:

«مثلاً.. بعض المنتوجات الزراعية لا تحمل فقط اسم بلد المنشأ بل نوعية التراب؟».

«نوعية التراب؟».

«النوعية الخاصة التي نما فيها الزرع.. وهذا أمر مهم عند تصنيف الانتاج.

«اوه.. فهمت».

وتأثرت بالمجهود الذي يبذل لتأمين مواصفات الانتاج للأسواق... وتابعت:

«الأمر مذهل.. لم أكن أعلم مدى الجهود التي تمر بها الزراعة.. هل هناك شيء آخر أستطيع رؤيته؟».

فتردد قليلاً، ثم قال:

«وهل ترغبين في رؤية الكهوف التي نستخدمها كمخازن؟ الأقبية المهمة أيتها الحمقاء الصغيرة!».

ورفضت ان تنجر الى خصام معه لكلامه القارس.

«أحب جداً ان أشاهد الأقبية!».

وكان صوتها لا يترك مجالاً للشك في مشاعرها لدعوته اياها بالحمقاء.. فهز كتفيه، وكأن لا خيار آخر أمامه:

«عظيم!».

وتبعته عائدان عبر صفوف غرسات العنب، وكادت تتعثر ثانية، فأدار رأسه لينظر اليها بتعبير لم تفهمه

www.elromancia.com

تماماً.. وبدا عليه الجد وهو يقول:

«أتمانعين اذا لم أمسك بذراعك؟».

«لا.. لا أمانع».

وأحست بالأنظار تلاحقهما طوال الطريق. ولحقت به عند نهاية الطريق، فالتفت ليقول متابعاً الحديث:

«ولكنك تفضلين ان أهتم بك وكأنني العاشق.. هه؟ ولهذا انت هنا. أليس كذلك؟ كي تخلقي هذا الانطباع!».

وتوقفا في مواجهة بعضهما عند فتحة من الحقل تعطي ممراً نحو الطريق، ووقفت لتواجهه ولتقول بصوت منخفض أجش:

ليس لدي فكرة عن الانطباع الذي تظنني أحاول خلقه.. ولكن يبدو انه يدور في خلدك شيء عن سبب مجيئي معك الى هنا».

وتمنت لو ان هذا الحديث كان يجري في مكان أقل عامة من هنا، وخطر في بالها انه ربما كان يأتي معه بالنساء من قبل، وما اذا كانت قد صنفت في نفس اللوائح أمام العمال.

وسمعته يضحك ثم يقول:

«وهل أتيت لرؤية الكروم؟ أتظنين انني لا أعرف لماذا جئت الى هنا يا جميلتي؟ او لماذا رتب جدي مثل هذه الزيارة؟ وهل تظنين انني أبله لا أعرف ماذا يدور في خلده بالنسبة لي؟ وأنت.. يا من تتعاونين معه بكل

ارادة؟».

وأحست بضعف ساقيها فجأة، وبتقلص في معدتها.. لم تكن قد فكرت بقصد العجوز من مجيئها لرؤية البساتين مع حفيده. ولكنها تجاهلت هذا ونظرت من حولها الى مناظر الكروم والحقول المتسعة من حولها وقالت:

«السيد ويلكوت يعرف انني سأكون مهتمة برؤية كل هذا. وهذا كل شيء!».

وسألها، مظهراً بكل وضوح انه لا يصدقها:

«وأنت مستعدة للسير في هذا القيظ، وتتغبري وتعرقي.. فقط لترين هذا؟ هل تكتبين قصة عن زراعة الكرمة يا آنستي الباحثة؟».

فاحمر وجه ديانا، لقد تحملت منه ما يكفي، وتلألأت عيناها بالغضب:

«لست أدري ما في ذهن جدك عندما رتب هذه الزيارة، ولكن مهما كان، وبما يختص بي، اهتمامي الوحيد هو في الحقول يا سيد، وليس في الدليل المرافق!».

والتقت نظراتهما، عيناه ضيقتان متعجرفتان حيث قال:

«لابد ان تعرفي ان لا شيء يرضي جدي أكثر من رؤيتي متزوجاً ومستقراً. ولا تقولي لي ان هذا لم يبدر الى ذهنك عن أسباب استخدامه لك، كي يضع الاغراء في طريقي، يا آنسة ستيوارت!».

www.elromancia.com

وحدقت به غير مصدقة ثم قالت بأنفاس مقطوعة:

«اوه.. لا! لا يمكن حقاً ان تصدق بأن السيد ويلكوت يمكن له ان... لا يمكن ان تكون جاداً!».

فضحك اريك وقال:

«وهل انت ساذجة الى هذا الحد يا حلوتي؟ ألم تدركي بأنك مدفوعة لترافقيني؟».

«لقد ظننت انه... يمكن ان.. ولكنني لا أصدق يعني بهذا ان يكون.. أكثر من.. من عنب... وبالتأكيد لم أكن أفكر حتى بهذا!».

وظهرت ابتسامة مشدودة خالية من المرح على أطراف فمه:

«لقد أسأت الحكم على معرفة جدي بي يا صغيرتي.. انه يعرف جيداً.. انني لا.. أعبث هكذا بكل بساطة. ويعرفك جيداً كذلك، كما أظن، ليعرف ان لا شيء بعيد عن تفكيرك.. أليس هذا صحيحاً؟».

فرمقته بغضب:

«سيد اريك.. أنا...».

وصمتت لملمس يده يدسها تحت ذقنها ليرفع وجهها اليه:

«لا يمكن لك ان تأملي بعلاقة حب.. أليس كذلك يا آنستي؟».

صوته المنخفض أرجفها كالجليد يسري في جسدها، وأشاحت وجهها بسرعة لتتجنب عينيه، وقالت بجفاء:

«لا.. لن أفكر بهذا! وكذلك فأنا لا أصدق انك قد تأمل بالمثل معي.. سيد اريك!».

«اذن انت تحتسبين لكل شيء يا صغيرتي. جدي ليس في ذهنه سوى الزواج.. وفي شهر كامل لم يفكر مطلقاً انك قد تكوني مهتمة بمزارعنا ولا حتى انت أبديت اهتمامك بها... لا يا آنستي... انت لن تقنعيني بهذا الكلام! جدي يعرف تماماً ماذا يفعل... وأنت مستعدة لفعل ما يرغب به، والمجيء معي! ولا يمكن ان أصدق انك لا تعرفين ما كان يدور في ذهنه».

فقالت ديانا بغضب:

«بإمكانك تصديق ما شئت.. فليس لدي النية في فرض نفسي عليك أكثر اذا كان هذا رأيك بي! ولن أحرجك أمام عمالك!».

عمق غضبها أدهشه، وللحظات ظنت انه ندم على ما تفوه به، وبدا انه قد يعتذر، ولكنه أشار الى السيارة الواقفة على الطريق خلفها.

«هل لي ان أوصلك الى القصر يا آنستي؟».

فهزت رأسها بغضب، مع احساس برغبة في البكاء:

«لا.. شكراً لك! ولا تدعي الأدب معي يا سيد اريك.. فهذا يغاير شخصيتك!».

«أدعي..؟ ستوصميني بقلة الأدب أكثر لو لم تسمحي لي بايصالك او الذهاب لوحدك».

وكانت متلهفة للابتعاد عنه، فهزت رأسها بالحاح،

www.elromancia.com

وقالت بصوت مرتجف:

«أفضل العودة لوحدي.. وأستطيع ان أجد طريقي!».

وظنت انه سيصر على ايصالها، وتمنت لو يفعل، ولكنه أحنى رأسه كعادته بأدب وقال:

«حسن جداً يا آنستي!».

واستدار على عقبيه وعاد نحو الحقل، ورأسه يرتفع بعجرفة وتصلب الغضب بادٍ على جسده.

وبدا لها الطقس أبرد قليلاً بخروجها من القرية، ولكنه كان لا يزال حاراً ولا ريح يتحرك بالمرة.. وكان الوقت قد مر دون ان تشعر وهي تسير الهوباء نحو القرية في طريق بعيدة جداً، بدل ان تستدير مباشرة للذهاب نحو القصر، فقد أحست بحاجتها لفترة من الهدوء والتأمل للتغلب على غضبها. وتساءلت ما اذا كان أحد قد استفقدها حتى الآن في القصر، هذا اذا كان اريك قد عاد لوحده مَن دونها.

وتذكرت سخريته منها، وعدم تصديقه انها لا تعلم شيئاً عن خطط جده، فأحست بنفس مشاعر الاحراج كما لو انها لا زالت تواجهه، وأحست فجأة بعدم الرغبة في رؤيته.. فتوقفت حيث هي ثم جلست فوق العشب الحار بتأثير الشمس عليه قرب الطريق.

وبدا لها واضحاً، بعد التفكير، انه انما يحاول احراجها كي تغادر، وواقع انه مصمم على هذا هو الذي آلمها أكثر. لقد عانقها مرتين بطريقة جعلتها ترتجف كما

ترتجف الآن تماماً لمجرد تذكر هذا. ولكنه في كل مرة كان يتركها دون أدنى شك بأنه يعرف تماماً ما مدى تأثيره عليها، وهو بكل بساطة يتسلى بردة فعلها... ولكنها الآن تعرف أسبابه.

وتنهدت عميقاً، وحفرت التراب بطرف حذاءها، ثم رفعت رأسها لسماع صوت سيارة قادمة.. فوقفت على قدميها، وتابعت السير باتجاه القصر.. وكانت السيارة مسرعة... وتعرفت اليها بنفس اللحظة التي تصاعدت فيها أصوات مكابحها فوق الطريق، مرسلة غيمة من الغبار.

ونظر اريك اليها عبر النافذة، ولم يقل شيئاً، بل أدار السيارة ببراعة في الطريق الضيق، ثم توقف الى جانبها ثانية...

لماذا بحق السماء عاد ليبحث عنها بعد الكلمات الاتهامية الخشنة التي استخدمها. وخرج من السيارة ووقف ينظر اليها.

«اين كنت ايتها الحمقاء الصغيرة؟».

فرفرفت ديانا عينيها بدهشة، فتصرفاته كانت تشير الى انها لم تفتقد فقط، بل انه كان متلهفاً لمعرفة مكانها، فقالت ببرود:

«لقد سرت الى القرية».

«ولكنك لم تفكري بإخباري عن نيتك؟».

فرفعت رأسها.

www.elromancia.com

«عندما تركتك، لم تكن مهتماً اين أذهب طالما انني سأبتعد عنك! ولست مضطرة لاعلامك عن كل تحرك أقوم به... سيد اريك!».

«اللعنة! انت...».

وبدا واضحاً انه يقوم بجهد كبير للسيطرة على غضبه، وأمسك بذراعها، ليقنعها بنصف مقدار، ويدفعها بالنصف الآخر لتصعد الى السيارة، ويقفل الباب وراءها بغضب.

باقترابهما من القصر شاهدت ديانا رجلي بوليس يقفان الى جانب سيارتين متصادمتين... فهزت رأسها بحيرة، كيف يمكن ان يحدث هذا في مثل هذه الطريق الهادئة المهجورة تقريباً؟ وبدا ان الاصطدام كان سيئاً. مع ان معظم ما نتج عنه كان قد أزيل عن الطريق وقالت ديانا بعد اجتيازهما المكان:

«لابد ان هناك اصابات سيئة في هذا الحادث».

«عدة أشخاص».

«أمر مريع.. آمل ان لا يكون قد قتل أحد».

«لقد قتلت فتاة.. قيل انها فتاة غريبة.. لقد أخذت الى أقرب مستشفى وماتت هناك».

ونظرت اليه ديانا بإحساس غريب، وسألته:

«هل شاهدت ما حدث؟».

«لا.. لقد جئت منذ فترة قصيرة، بعد ان كان كل شيء قد انتهى.. ولكن رجال البوليس أخبروني».

«اوه.. فهمت».

ولم يقل المزيد.. واعتقدت انها تعرف الآن سبب قيادته السيارة بتلك السرعة عندما شاهدته، فقد كان مسافراً الى البلدة المجاورة الى المستشفى ليتعرف على هوية الفتاة الغريبة. وسألته بصوت منخفض:

«وهل ظننت الفتاة المقتولة أنا؟».

ولم يلتفت اليها ولا أثبت او أنكر قولها.. بل تابع قيادة سيارته بصمت.. وجلست ديانا بقربه تحس فجأة بالحرارة ودوار خفيف في رأسها وهي تفكر كيف كان يقود كالمجنون ليجد ما حل بها... وكيف ان الارتياح لرؤيتها سالمة تغلب على اي تساؤل عن مكان وجودها، وعن عدم اخبارها له بنيتها المسير الى القرية. بدل العودة مباشرة الى القصر.

وأرجعت رأسها الى ظهر مقعدها، تنظر اليه من بين ظلال رموشها السميكة، وهو يستدير بالسيارة ليدخل أبواب حديقة القصر.. ولم تقل اي شيء، فهي تعلم جيداً انه لن يعترف مطلقاً بأنه قلق عليها، ولكن ابتسامة خفيفة كانت تزين فمها وهو يوقف المحرك، ووجدت ان تأكدها التام من هذا مرضي لنفسها بشكل لا يصدق.

كانت ديانا تتوقع ان يأخذ عملها بعض الوقت، ولكنها ذهلت كم استغرق هذا من وقت... وكان قلقها يزداد من عدم حماية هذه الأثريات الثمينة مع تقدم معرفتها أكثر بها. ولابد ان عائلة ويلكوت ثرية للغاية، ولكن حتى توماس العجوز اندفع متعجباً ليقول ان ليس لديه فكرة بأن

www.elromancia.com

القصر يحتوي على مثل هذه الثورة.

مضى على عملها ثلاثة أسابيع، ولم تكمل سوى جردة لغرفتين فقط، وبالكاد بدأت بالثالثة. وبقي أمامها عدد من الغرف لتهتم بها. وسيكون العمل طويلاً، كما توقع السيد ويلكوت تماماً عندما عرض عليها العمل، وتساءلت عما اذا كان على علم بهذا الواقع سلفاً، وبهذه النسبة من التقدم توقعت ان يستغرق العمل ما لا يقل عن ستة أشهر كي تنهي ترتيب لوائح كل محتويات القصر. وفكرت ان من واجبها ذكر هذا الواقع وقت العشاء ذلك المساء.

وتطلع اريك اليها بذهول عندما تلفظت بتخمين الستة أشهر.. ولكن توماس ويلكوت لم يبدو عليه الاهتمام بكم سيستغرق العمل، مما دفعها ثانية للتساؤول ما اذا كان فعلاً يحمل الدوافع التي اتهمها بها حفيده، وتقبل تخمينها بكل بساطة هازاً رأسه مبتسماً:

«ألم أقل لك ان العمل سيأخذ وقتاً طويلاً يا عزيزتي؟».

«بلى سيد ويلكوت، ولكن هل خمنت مثل هذه المدة؟».

فقال العجوز مرحاً:

«لم يكن لدي فكرة عن الوقت.. وبالتأكيد هذه نتيجة منطقية يا عزيزتي».

وسألتها السيدة ويلكوت بكل لطف:

«وهل تعبت من المهمة يا ابنتي؟».

«اوه لا.. يا سيدتي! ولا أظن انني قد أتعب منها أبداً، مهما طال الوقت!».

ولم تكن تنظر الى اريك وهي تتكلم، ولكن عندما نظرت اليه كان على فمه نصف ابتسامة جعلت قلبها يرتجف.. فضحكت وهزت رأسها:

«لست أدري.. ولكنني أحس.. أحياناً.. ان هناك شخصاً يشك في انني أطيل مدة العمل أكثر من اللازم».

وعلم اريك انها تشير اليه، فقال بصوت يثير الاهتمام:

«وهل تقومين فعلاً بإطالة مدة العمل أكثر من اللازم يا ديانا؟».

ونظر اليه جده مؤنباً:

«اوه لا.. يا ولدي.. ولماذا تفعل ديانا شيئاً كهذا.. غير ضروري.. هه؟».

وهز اريك كتفيه، وأطبقت أصابعه على فنجان قهوته رامقاً ديانا نظرة ثابتة طالما وجدتها مربكة، وقال:

«لست أدري يا جدي... فالفكرة كانت لها وليست لي!».

فردت ديانا عليه:

«السيد ويلكوت يفهمني جيداً.. الأمر انني أخاف ان يفوتني شيء، او ان أضع القيمة الخطأ على شيء ثمين. ولهذا آخذ وقتي... وقد يقف شعر رأسي أحياناً، أتساءل ما اذا كنت لا أقوم بجدارة في التقييم!».

فقال توماس بحزم:

«لا... هذا ما لن أصدقه! ولسوف تنجحين بشكل ممتاز يا عزيزتي، ولن أثق بأحد سواك لهذا العمل!».

«شكراً لك سيد ويلكوت.. لطف كبير منك قول هذا!».

والتفتت اليها السيدة ويلكوت:

«هل تفكرين بتركنا يا عزيزتي؟».

ولاحظت ديانا كم سيكون الفرق لو طرحت عليها هذا السؤال منذ بضعة أسابيع.. فقالت بابتسامة.

«ليس قبل ان ترغبي انت بهذا يا سيدتي. فأنا أتمتع بوجودي هنا كثيراً ولن أتخلى عن الأمر طوعاً».

فسألها اريك ساخراً:

«ألن تفتقدك عائلتك او أصدقاؤك؟».

وبدل الرد فوراً، تناولت لقمة من الجبن أولاً، ثم أخذت وقتها في المضغ.. وقالت بصوت صريح صادق:

«لا أحد يضغط علي للعودة، اذا كان هذا ما تقصده يا اريك».

وتدخل العجوز توماس مسروراً بتبادل الحديث بينهما:

«ولماذا لا تسأل اذا كان السيد جيبسون يسعى الى حرماننا منها ايها الباسل... بدل ان.. كيف تقولون؟ المراوغة!».

والتفت الى ديانا يسألها بلهفة:

«وهل يسعى لأخذك منا يا عزيزتي!».

«في الواقع لقد قال رايان في رسالته الأخيرة لي انه قد يأتي الى هنا لقضاء بضعة أيام... فسيستحق له بضعة أيام اجازة بعد وقت قصير، وهو يرغب في اعادة زيارة المنطقة، فلم تتح له الفرصة لهذا آخر مرة».

وقال توماس:

«ولكن سيرغب في رؤيتك كذلك، بالطبع؟».

«بكل تأكيد».

ونظر اليها توماس ويلكوت متفحصاً، وكأنما قلة اهتمامها برايان جيبسون أسعده، ثم قال:

«لا يبدو عليك انك عاشقة سعيدة... ألن تكوني سعيدة لرؤيته ثانية بعد طول فراق يا عزيزتي؟».

وعلمت ديانا بالضبط ما يقصده، فابتسمت له:

«لقد قلت لك منذ البداية سيد ويلكوت ليس هناك اي نوع من العواطف في علاقتي مع رايان.. نحن فقط أصدقاء أعزاء، وهذا كل شيء. لقد اشتقت اليه، ولكنني لا أستطيع القول انني افتقدته حقاً، ولا هو افتقدني، كما أعتقد، فهو أعقل من هذا!».

«عاقل! يا الهي! وما دخل العقل بالحب يا فتاتي؟ ما دخله بالعاطفة.. هه؟».

وبرقت عينا ديانا بالضحك. فالعجوز عاطفي مخلص، ولا شيء، كما يبدو، لغيره. وهو مقتنع ان رايان يحبها ولن يصدق شيئاً آخر. ونظر اليها يهز رأسه، ثم غمزها وقال:

www.elromancia.com

«أتضحكين يا جميلتي؟ قولي لي ما دخل العقل بالحب؟».

فردت وقد جلبت ضحكتها اللون الدافيء الى وجهها:

«لا شيء كما أعتقد سيد ويلكوت.. ولكنني قلت لك أكثر من مرة ان لا شيء يماثل الحب بيني وبين رايان».

ونظر بصراحة الى حفيده وقال:

«آه.. لقد قلت هذا فعلاً.. ولا مع أحد آخر.. هه؟».

«لا أحد بالمرة... وأحب الأمر هكذا!».

فتمتم العجوز:

«يا الهي! لا أتصور ان فتاة بهذا الجمال تقول شيئاً كهذا! ولكن ربما ستة أشهر أخرى من المحيط الرائع هنا قد يعلمك.. ولن أصدق العكس!».

مضى الآن أكثر من شهرين منذ وصولها الى القصر، وأحست بشكل لا يصدق انها تعيش في منزلها، وكأنما تنتمي له. وتساءلت ما اذا كانت صلة القرابة مع تشارلز ستيوارت ويلكوت هي التي مكنتها من التناسب بهذا الرضى والسهولة مع محيطها.

الطقس أكثر برودة في ظل الأشجار، ولقد رحبت بالظل بعد يوم أمضته في العمل في أحد أصغر الغرف جعلتها حرارة الشمس لا تطاق. وأنهت عملها فيها أبكر من المعتاد، وأنعشت نفسها بحمام وغيرت ملابسها، ووجدت نفسها مع الكثير من الوقت قبل موعد العشاء.

لم تكن لتسأم مطلقاً من التمشي الذي تتيحه لها الحدائق الفسيحة، وكانت على الدوام تجد أمكنة جديدة. مع ان الكنيسة الصغيرة بقيت نوعية مجهولة لها، فهي لم تذهب الى هناك منذ مواجهتها مع اريك. فقد أحست انها لا يجب ان تذهب الى هناك دون دعوة مع انها كانت تتعرض للاغراء عند مرورها قرب المكان.

ما كان بعيداً عن التصديق، هو ان سارة ويلكوت بقيت لغزاً محيراً. وأصاب ديانا الفضول أكثر لاقتناع القرويين والكاهن بكل تصميم عن ذكر اي شيء لها بعد ان علموا انها باحثة عن قصص وتعيش في قصر ويلكوت. ولابد ان هناك شيئاً حول والدة اريك يتسبب بهذا الاخلاص الصامت.

المدافن القديمة المرتاحة بين الأشجار، في مكان مقابل للمكان الذي تقف فيه كان لها منظر لا يشجع.. ولكنها نفضت عن نفسها اي فكرة خيالية، وتقدمت عبر الفناء. وهي تفتح الباب الخشبي المنخفض، أصدرت مفصلاته القديمة صريراً، وحفحف خشبه العتيق فوق الأرض الحجرية، حتى انها نظرت من فوق كتفها تحس بعقدة الذنب.

لا زال هناك ورود صفراء أمام اللوحة التذكارية لسارة ويلكوت، والنور الأصفر للشموع أمام الحجر البيضاوي المثبت الى الجدار العتيق للكنيسة. ولكنها لم تتقدم نحوه مباشرة هذه المرة.. بل سارت حول الجدران، تفتش عن

www.elromancia.com

لوحه تشارلز سيتوارت ويلكوت، او دونالد ادامز ويلكوت، الذي يشابهه اريك أكثر.

ووجدت اللوحة، عند تلك اللحظة سمعت صوتاً، من خارج الكنيسة الصغيرة. فنظرت من حولها برعب. وأحست بالذنب مرة أخرى.. هدفها الوحيد الآن ان تخرج دون ان يراها أحد، ولمحت من طرف عينها الستارة في الزاوية، فتذكرت ذلك المدخل لذلك الممر خلفها، وبسرعة اختفت وراء الستارة.

وأدارت النتوء المزخرف الذي يفتح الباب، وسمعت صوت الباب الخارجي يصرّ فوق الأرض الحجرية، فدخلت الفتحة بسرعة، دون ان تعرف من القادم، وأقفل الباب الحجري الثقيل خلفها.. عندها فقط أدركت ان ليس معها أية وسيلة للانارة... بعد ان بقيت في ظلام دامس.

وأحست بالخوف، ولكنها قاومت الاحساس به وبدأ تتحسس طريقها على جدار الممر... وتعثرت أكثر من مرة، وزاد خوفها، وأخذت ترتجف من شيء أكثر من رطوبة الجدران الحجرية، وبدأت أخيراً في صعود السلم الذي يقود الى المدخل نحو الرواق في أعلى السلم داخل القصر.

ولم يكن محرك المدخل بعيد عنها كما حزرت، ولكنها وجدت صعوبة في الحكم على المسافات في الظلام، ولم تتذكر كم هو بعيد بالضبط.

واستخدمت يداها للبحث فوق الجدار، حيث تعلم ان هناك حلقة حديدية معلقة.. او اي وسيلة لفتح تلك الفتحة من الداخل... ولكنها لم تجد شيئاً.

لقد تقدمت أبعد، كما أحست انها متأكدة، مما تذكر انها المسافة من السلم الى مكان الحلقة عند أعلى السلم، وبدأت بالذعر عندما لم تلامس أصابعها سوى الحجارة الخشنة الباردة. وخطوة اخرى الى الأمام، ثم توقفت، يائسة، عاجزة وأحست فجأة بالذعر.

ومدت كلتا يديها الى الأمام، وجاءها الارتياح من حيث لم تتوقع عندما وقعت يدها على حجر بارز في الجدار. وسعت لتحريكه، ووجدت أخيراً حلقة معدنية صدئة معلقة به.. فتدفقت الدموع منها بارتياح، ولم يعد يهمها ان ينفتح المدخل باتجاه الرواق ام لا. فكل ما تريده الآن الخلاص من هذه العتمة المخيفة، وأقسمت ان لا تعود لهذا ثانية.

وتطلبها تحريك الحلقة قوة أكثر مما احتاجته من قبل. ولكن الكتلة الصلبة تحركت أخيراً... وفجأة أحست بغشاء بصرها من نور الشمس، فوضعت يدها فوق عينيها وهي تخطو الى الخارج.

ولم تتوقف لتتحقق عن مكان وجودها بل استندت الى حائط خلفها تتنفس بصعوبة للتغلب على ما ساورها من خوف. وأخيراً أنزلت يديها ونظرت من حولها بذهول، وقد أدركت انها في غرفة نوم شخص ما.

ووقفت للحظات خائفة من ان تتحرك، وهي تصلي صامتة ان لا يكون للغرفة صاحب. وكانت غرفة رجالية لا شك فيها، ولا أثر لأي شيء انثوي... والوحيد الذي يمكن ان يكون صاحبها في هذا القصر.. هو اريك.

وخفق قلبها بقوة بخوف من نوع جديد، عندما سمعت صوت فتح باب بعيد عن أنظارها، ثم صوت وقع خطوات ناعمة فوق السجاد. وبلغت أنفها روائح عطر رجالي مع فتح الباب. وخمنت انه باب الحمام.

واستطاعت بسهولة ان تتخيل ما قد يقوله اريك عندما يشاهدها، وعليها في هذه اللحظات ان تعترف انها ليست في موقع يسمح لها بلومه.

وبرز أمامها فجأة، وكان صعباً معرفة من كشف عن دهشته أكثر. فتوقف جامداً في مكانه، عيناه دون حراك ولا تعبير. أما ديانا فلم تكن تعرف ماذا تتوقع. ولكن بكل تأكيد ليس الطيف الطويل الممشوق القوام الذي بدا أمامها فجأة، لا يرتدي أكثر من روب حمام حريري يلتصق ببشرته المبللة وبالكاد يغطي ركبتيه، طيف مكتمل الرجولة قوي، حتى في هذه الظروف أشعل استجابات غريبة مقلقة فيها. وقد فقدت عيناه بريقهما الفولاذي وبدأت تظهر عوضاً عنها بسمة عميقة.

وقال لها بانحناءة ساخرة:

«لقد شرفتني يا آنستي. انها سعادة غير متوقعة!».

وتفحص حالة فستانها، وجهها، ويديها المليئة بغبار

وعفن الممر. ثم تابع:

«ولكن بالتأكيد يا آنستي، انت لست خرقاء في زينتك ونظافتك لهذه الدرجة عندما تودين مقابلة رجل في غرفة نومه، أليس كذلك؟».

بالاضافة للحرج، أحست انها معرضة لكل الأخطار كذلك، وهزت رأسها تحاول التفسير:

«لقد أتيت من...».

«أعرف تماماً من اين أتيت يا صغيرتي! لقد كنت في مكان لا حق لك بأن تكوني فيه ثانية. وفي وقت ظننت نفسي فيه انني دربتك بما يكفي لتتصرفي بشكل لائق!».

ولم تجد الوقت مناسباً لتقول له انها أتت من الكنيسة، فلتتركه يعتقد انها كانت في الممر، وحاولت الاعتذار:

«أنا.. أنا آسفة.. ولكن يجب ان تعرف ان لم يكن لدي فكرة اين سأصل...».

«لا؟».

فاحمر وجهها، وأمسكت أعلى ذراعيها بيديها بقوة. فقد لاحظت تعبيراً غريباً في عينيه، دفع الحاحاً مجنوناً لضربات قلبها، فهزت رأسها ببطء، دون ان تحس بأنها تفعل.

«انت تعرف انني لا أفعل هذا. يجب ان تعرف انني ما كنت دخلت لو عرفت انني سأصل الى هنا».

ومد يده فجأة ليمسح بأصبعه دمعة انحدرت دون وعي

على خدها، بلمسة بعثت القشعريرة الى أوصالها. وقال لها:

«يبدو انك كنت ستمرين عبر اي فتحة او باب قد ينفتح أمامك لحظتها، كما أعتقد يا عزيزتي... حتى ولو كان يقودك الى غرفة أسوأ وغد في اسكتلندا... هل انا على حق؟».

فاعترفت حائرة:

«ربما».

وسألها:

«هل تعلمين ان هذه كانت غرفة تشارلز ستيوارت ويلكوت قديماً؟».

ونسيت وضعها الحالي المحرج بعد ان انشغل فكرها بسلفهما المشترك. وحدقت في الغرفة الكبيرة المضيئة.

«صحيح؟ لم تكن لدي أدنى فكرة...».

«وإلا لكنت دخلت اليها من قبل. هه؟».

ولوح بيده ليمنع احتجاجها، وأخذ يبتسم، ثم قال:

«لقد كان ساحراً كما اتفقنا من قبل».

«بل كان فاتناً مغرياً».

فرد بسخرية:

«هذا صحيح يا عزيزتي.. انت تتعلمين بسرعة! لقد كان مولعاً بالفتيات، وسارة دوبريه لم تكن حبيبته الوحيدة... فلقد كان له الكثير من الخليلات في القرية».

وأدركت انه يركز على واقع اصراره بأنه يعرفه أكثر منها. فمنذ البداية رمى بالشك في نظرياتها عنه وعن اخلاصه في حب سارة دوبريه. وبطريقة، أخذت تصدقه. ولماذا لا تصدقه؟ أليس هو نفسه بنفس الأخلاق، إلا اذا كانت المظاهر خادعة؟.

وقالت له:

«له ذوق رفيع في الحب، أليس كذلك؟».

«ربما... وهل يزعجك هذا يا عزيزتي؟».

«لا.. لا يزعجني.. بل انه يخيب املي انه لم يكن.. مخلصاً».

فابتسم:

«رجل واحد لامرأة واحدة؟ هل هذا هو مثالك الأعلى يا عزيزتي؟».

«أعتقد هذا... انه مثال كل امرأة؟».

فهز رأسه:

«ولكنه ليس لكل رجل... لسؤ الحظ!».

ولم تكن واثقة ماذا يجب ان تكون خطوتها التالية. فقد وجدت صعوبة في انسحاب مشرف في هذا الظرف. ولكن لا يمكنها البقاء هناك. ليس وأحاسيسها تتجاوب بالحاح لتلك النظرة الرقيقة في عينيه. فقالت بصوت أجش:

«عليّ الذهاب الآن».

كان يقف أمامها مباشرة، وعليها ان تمر به لتصل

www.elmanara.com

الباب. ولم تستطع ان تجد الارادة الكافية لأن تمر به وتلامسه، وهي مترددة كان يحدق بها. وسألها بصوت أجش، مغري، تذكرت مدى تأثيره من مرة سابقة:

«وهل تظنين انني سأتركك تخرجين وقد أصبحت هنا؟».

فنظرت اليه بسرعة وقد اتسعت عيناها خوفاً. وقالت بصوت مخنوق:

«أنا ذاهبة الى غرفتي.. أرجوك ابتعد عن طريقي يا اريك!».

ولم يقل شيئاً. بل امتدت يده اليمنى لتمسك ذراعها، وتجذبها اليه.. وأصبحت تواجهه، ذراعاهما متلامسان، ووجهه على بعد سنتيمترات من وجهها، وذلك العطر الرجولي اللذيذ يمتزج بدفء جسده ليوقع أكثر تأثير مدمر على أحاسيسها.. وقال هامساً:

«ليس بعد».

«اريك...».

وأحست بارتجاف ساقيها وكأنهما ورقتا شجر مهددتان بالسقوط والانهيار تحتها، فرفعت وجهها اليه لتجد ان التعبير في عينيه أكثر ارباكاً مما تخيلت. كانت ترتجف ولا تحاول المقاومة، وبدون كلمة، جذبها اليه أكثر ولف ذراعيه حولها، ليقربها أكثر حتى بدت وكأنها مسمرة على جسده القوي، ومضغوطة أكثر بيديه وراء ظهرها.

ورفعت رأسها اليه بشكل غريزي. نصف مغمضة

لعينيها بينما أخذ منظر وجهه يختفي ويملأ عينيها قبل لحظة من وصول فمه اليها. وانقطع نفسها وكأنها كانت تركض بقوة، ورفعت ذراعيها لتلفهما حول عنقه، واضعة جبهتها على صدره وهو يمرر فمه على مؤخرة العنق قرب الأذن.

وببطء أرجعت رأسها الى الوراء، تهز شعرها الطويل الأسود، وتغمض عينيها بالكامل بسعادة، تكتشف نوعاً جديداً من الاثارة لم تعرف بوجودها من قبل.

كان في مداعباته دفء وحرارة، ومشاعر مدغدغة استجاب لها جسدها طوعاً... وازدادت حاجتها لحبه حتى كادت تتمزق. وأخذ يهمس:

«عزيزتي!».

فنظرت اليه مبتسمة.. فتابع:

«كم انت جميلة يا حبيبتي!».

وشد عليها أكثر حتى كاد يزهق أنفاسها.

وفتحت عينيها، لتنظر اليه وقلبها يضرب بشدة حتى انها لم تتمكن سوى ان تصدر صوتاً مخنوقاً:

«أعلم... أعلم انني... حمقاء تماماً... ولكن هذا لم يعد مهماً الآن».

فضحك ضحكة عميقة راضية، أحست بالرعشة وهي تلاحظ انعكاسها على عينيه وقال:

«اذن كوني حمقاء كاملة.. واقبلي بالخروج للعشاء معي!».

www.elromancia.com

«عشاء! ولكن أليس من المفترض ان نتناول العشاء بعد قليل؟».

فعاد للانحناء ليمرر فمه على وجهها.

«أرغب في أخذك الى أقرب مدينة لنتعشى هناك يا جميلتي. فهل تأتين معي؟».

ونظرت اليه بصمت للحظات، ثم واجهت حقيقة اضطرارها للقرار. في اي فرصة أخرى كانت ستنظر الى دعوته بريبة. ولكنها الآن تجد نفسها تواقة للقبول... ولكن فقط بعد ان تتأكد من دوافعه.

«سأحب جداً ان أخرج معك لو كنت تريد هذا فعلاً».

«بكل تأكيد أريدك معي.. وإلا لماذا أسألك... هه؟ لماذا تشكين بي يا ديانا؟».

فهزت رأسها:

«ربما لأنني لا... لا أستطيع فهمك تماماً».

فضحك وهز رأسه:

«لا تحاولي فهمي اذن يا صغيرتي! هل ستخرجين معي؟».

وعادت نظرة التحدي المألوفة الى وجهه، ووجدت صعوبة في مقاومتها مهما كان هذا حماقة منها. فهزت رأسها:

«سأقبل.. ولكن يجب ان...».

فأصمتها بفمه، ثم قال ضاحكاً:

«يجب ان تزيلي عنك غبار السنين يا عزيزتي... أما

الباقي فاتركيه لي!».

أدركت، وهي تغير ثيابها، انها بقبولها الخروج معه الى العشاء، تكون قد خطت، كما قد يقول رايان، خطوة بلا تجاه الخاطيء. ولكنها كانت واثقة من مقدرتها على السيطرة على الوضع بينها وبين اريك، فهي قد تمكنت حتى الآن ان تبقى، اذا لم يكن دون تأثر، فعلى الأقل مسيطرة بحزم على مشاعرها.

ونظرت الى شكلها في المرآة وتنهدت.. ربما ارتكبت حماقة بقبولها الدعوة... ولكنها لم تتمكن من المقاومة، كما ان لا شيء يمكن ان تفعله تجاه ازدياد مشاعرها تجاه اريك. وتناول العشاء معه سيكون كنسف لآخر حاجز مقاومة او حتى هذا لا يمكنها الآن ان تفعل شيئاً حياله.

ووقفت ديانا لحظات تحدق في صورة سارة دوبريه، كما كانت غالباً تفعل... فهي لم تستطع ابداً الا ان تكون معجبة بهذه الفتاة التي أوجدت العلاقة منذ هذه الأعوام السحيقة بين عائلتها وعائلة ويلكوت الارستقراطية. وقالت هامسة:

«آه يا سارة... لقد صعبت الأمور في وجهي بكل تأكيد عندما أخذت واحداً من عائلة ويلكوت حبيباً لك... فلولاك لما كنت هنا».

وتركت ديانا غرفتها ورأسها مرفوع، والتقت بالسيدة ويلكوت التي بادرتها بالقول:

«لقد أخبرني اريك عن خروجكما لتناول العشاء يا

www.elromancia.com

ابنتي».

فابتسمت ديانا.

«لقد كانت فكرة اريك أكثر مما كانت فكرتي يا سيدتي. فهو شخص من الصعب رفض طلب له، كما تعرفين جيداً!».

فسألتها ايزابيل ويلكوت وهي تقطب:

«ولكن هل كنت راغبة في الرفض يا ابنتي؟».

«لم أكن اريد في الواقع الرفض.. ولكنني... آوه طبعاً كنت أرغب في الخروج! وسأقضي وقتاً ممتعاً، وربما سأحتفل بأول أمسية لي خارج القصر خلال اقامتي هنا... الأولى منذ أكثر من شهرين!».

وأمسكت أصابع ايزابيل بذراع ديانا، وكان هناك شيء في تعبيرها وجدته ديانا محيراً ومربكاً.. ثم تابعت:

«لقد أصبحت... مغرمة بك يا ابنتي... ومشاعري نحوك وكأنك... ابنتي!».

فهمست ديانا:

«سارة؟».

وأحست بالأصابع الرقيقة تضغط على ذراعها بحنان. خلال الشهرين الذين عاشتهما في القصر، لم يجري ذكر سارة ويلكوت مطلقاً، ولاحظت وهي تنظر الى المرأة العجوز. مدى تأثير هذا الاسم عليها... فايزابيل ويلكوت امرأة يمكن ان تكون متعلقة جداً بابنتها الوحيدة، ولكن من المشكوك فيه ان يكون الصمت

المطبق حولها هو نوع من الاراحة لها... عيناها السوداوان أصبح لهما نظرة متوترة وجدتها ديانا مؤثرة، وضغطت ثانية على ذراعها:

«أتعرفين عنها؟».

«أعرف فقط انها عاشت حياة قصيرة يا سيدتي».

فهزت العجوز رأسها بتفهم:

«آه.. صحيح... الكنيسة!».

اذن.. لقد قال لها اريك عن تلك الزيارة الى الكنيسة الصغيرة.... ولكن هذا لم يدهشها.. وقالت تشرح لها بحذر:

«لقد اكتشفتها صدفة».

وتابعت وكأنها تهدم الحاجز حجراً حجراً، وضبطت أنفاسها خشية ان تتمادى أكثر من اللازم فيقفل الموضوع في وجهها ثانية، وأنهت كلامها:

«سيدة ويلكوت.. اذا كنت...».

في تلك اللحظة شاهدت اريك يسير متجهاً نحوهما. فسحبت يدها من يد العجوز... فليس بعيداً عن أطباعه ان يشك في مثل هذه المودة بينهما، وهي لا تريد اثارة المشاكل. وأحست بالأسى لضياع الفرصة عليها، فليس من السهل ايجاد مثل هذه الفرصة المناسبة.

وقال بصوت عميق محب:

«سوف تعذرينا يا جدتي... أليس كذلك».

وأدارت السيدة رأسها لتنظر اليه.

www.elromancia.com

«وهل ستتأخران؟».

فابتسم بخبث جعل دماء ديانا تغلي.

«بالتأكيد يا عزيزتي.. سوف نتأخر! أليس كذلك يا ديانا؟ فليس لديك أسباب تتطلب عودتك الباكرة عند منتصف الليل مثل سندريللا.. أليس كذلك يا عزيزتي؟».

فأجابته بسرعة:

«لا بالطبع! وأؤكد لك يا اريك.. انني لا أشعر مطلقاً بالشبه بيني وبين سندريللا!».

«عظيم! فلنذهب اذن يا صغيرتي، قبل ان يتأخر الوقت! وداعاً يا جدتي.. والى ان نلتقي!».

كان الوقت متأخراً عندما وصلا الى المدينة القريبة. ولكنها كانت قد اعتادت على العشاء المتأخر، كعادة أهل البلاد هناك... والاثارة، أكثر من الجوع، كانت سبب ارتفاع وتيرة نبضاتها والسيارة تسير بهما وسط الشوارع المضيئة.. وما كان يثيرها أكثر فكرة ان يلتقيا بشخص يعرفه.. والنساء بشكل خاص.

بالنسبة له، قد تكون مجرد علاقة اخرى عابرة، وأحست بلهفة مفاجئة للابتعاد عنه قبل ان تجعل من نفسها حمقاء بالكامل... ونظرت الى الخارج من نافذة السيارة.

بنيت مدينة (أوين) على شاطىء خليج طبيعي عريض لا يبعد كثيراً عن تلال مرتفعة خلف الجزء الرئيسي

للمدينة.. وعلى قمة احد التلال كان هناك قصر بني على الطراز الروماني، بدا غريباً مقابل المنازل الأخرى من حوله ولكنها أذت طراز اسكتلندي قديم.

الريح كانت أكثر نقاء باقترابها من البحر، ولامست ذراعيها العاريين بأصابع باردة وهي تتقدم سيراً المسافة الصغيرة نحو المطعم على شاطىء البحر.

وكان المطعم مزدحماً بالناس، ولكن اريك تلقى خدمة سريعة لحظة دخوله، وناولها كأس الشراب ثم جلس قربها على الطاولة وقد وضع ساقاً فوق ساق بكل ارتياح.. ثم نظر اليها بعد قليل من الصمت ليقول:

«انت هادئة جداً يا عزيزتي.. ماذا يقلقك؟».

فهزت رأسها.

«لا شيء يقلقني، ولماذا أقلق يا اريك؟».

فمد يده ليضعها فوق يدها:

«انت لست طفلة، وأعرف هذا تماماً.. ولكنك تنظرين الي أحياناً بريبة الأطفال الذين لا يفهمون شيئاً».

«ربما أكون مرتابة بك. ولكن هذا بسبب. أنا أعرف سمعتك يا اريك. فأنت وجدك لم تتركا مجالاً للشك فيها، وأنا لست مستعدة لأن.. أنضم الى اللائحة.. كواحدة من.. علاقاتك العادية... أنا آسفة.. ولكنني مضطرة لأقول لك هذا!».

وأدهشها انه لم يغضب، بل استمر يحتسي شرابه.. ثم قال لها بعد ان رفع نظره اليها:

www.elromancia.com

«اذن.. لقد قلت ما في نفسك أخيراً. فهل بإمكانك الآن القول لي يا عزيزتي، لماذا انت هنا معي.. وأنت تشعرين بهذه الكراهية في الانضمام الى اللائحة؟»

«اريك... انا لم...».

فأصمتها بوضع أصبعه على فمها، وهز رأسه:

«لا أرغب في سماع شيء، ولا أرغب في افساد شهيتي قبل تناول وجبة شهية، تظاهري على الأقل انك معجبة بي قليلاً وانك ترغبين في تناول العشاء معي.. هه؟».

ولاحظ اريك انها تنظر في اتجاه آخر مذهولة، فتابع نظرتها وهو يقول:

«ديانا؟».

ولمعت شفتيها، وفي تلك اللحظة شاهدها رايان فبدد عليه الدهشة وراح يقطع الحشد نحوهما وقسماته الطفولية الجميلة مضاءة بابتسامة، وعيناه عليها.. فقال اريك بسخرية:

«يبدو ان السيد جيبسون مل الانتظار وجاء يبحث عنك».

وانحنى رايان ليقبل خدها..

«ديانا! تبدين رائعة.. أجمل مما مضى.. متلألئة!».

فابتسمت له.

«رايان.. انت تعرف السيد اريك ويلكوت بالطبع؟».

«مرحباً سيد ويلكوت! هل تتعشون هنا؟».

فرد اريك بسرعة ليقطع الطريق عليه:

«أجل.. ولكن لسوء الحظ سيد جيبسون، لن نستطيع دعوتك معنا، فطاولتنا محجوزة لاثنين فقط، انت تفهم بالطبع... وهذا المطعم مشهور بأنه لا مجال فيه لزيادة اي شخص على الحجز!».

وفهم رايان صده. ووميضت نظرة كراهية في عينيه. ولكنه هز رأسه:

«اوه.. بالطبع. أفهم هذا! ولكن ستتضمان الي في شرب فنجان قهوة؟ أنا مسرور لرؤيتك هنا يا ديانا!».

ونظرت الى اريك، وعرفت انه سيرفض الدعوة قبل ان يتكلم. وهز رأسه بحزم وقال بأدب بارد:

«آسف يا سيدي.. ولكن العشاء في انتظارنا».

واستدار ممسكاً يد ديانا ليأخذ أصابعه، ولكن رايان لم يكن من السهل صده. فقال بإصرار:

«هاي.. انتظر لحظة.. أريد التحدث الى ديانا! كنت سأزوركم عند الصباح، وأريد التجول في المنطقة وأنا هنا، وأريدك الذهاب معي.. فهل يمكن ان أمر لآخذك عند الساعة العاشرة صباحاً؟».

وأحست بضغط أصابع اريك القوية على ذراعها، فلمعت شفتيها متوترة:

«حوالي العاشرة؟».

فقال رايان وهو ينظر مباشرة الى اريك:

«أعتقد ان رب عملك لن يمانع».

www.elromancia.com

فهزت رأسها وقالت:

«انا واثقة ان السيد ويلكوت لن يمانع.. واريك ليس رب عملي، بل جده، وهو رجل لطيف، ولسوف يفهم».

«جيد.. اذن لا أعتقد انه قد يمانع لو أخذتك من القصر، أوكي؟».

«اوه.. بكل تأكيد».

«عظيم!».

والتفت الى اريك:

«وهل انت واثق بعدم رغبتك في تناول القهوة معي؟».

«لا.. شكراً يا سيدي! وأرجو ان تعذرنا، عمت مساء سيد جيبسون.. وربما سنلتقي ثانية».

«هذا ممكن جداً، اذا كنت سأجيء لأخذ ديانا في الصباح! اوه، لقد كنت أتكلم مع رجل منذ قليل قال انه كان يدرس في الأكاديمية الملكية في ادبرة قبل الحرب، وقال انه كان يعرف فتاة من عائلة ويلكوت، فهل لها صلة قرابة معك؟».

ولعدة ثواني لم يرد اريك، ولا تحرك، بل استمر يتفرس برايان بعينين ضيقتين كالجليد.. ثم أجاب ببرود:

«هذا ممكن سيد جيبسون. فمن تقاليد عائلتنا ان يتلقى أبناؤها التعليم في اسكتلندا وليس في لندن... مثلي أنا».

وقال رايان دون اكتراث:

«وكذلك... أمك».

وخفق قلب ديانا بقوة في ضلوعها. ولكن اريك رد بنفس البرود:

«وأمي كانت في أكاديمية أدبرة الملكية يا سيدي. والآن.. لو سمحت لنا.. نود تناول عشاءنا.. عمت مساء يا سيد!».

وحررت لسانها الجاف فوق شفتيها، متسائلة كيف ستقنع اريك ان لا دخل لها بما اكتشفه رايان، فقالت وهما يخترقان الجمع:

«اريك.. لم أكن أعلم شيئاً حول هذا. لم تكن لدي فكرة انه سيتكلم عن... شيء هكذا.. أعلم انك تكره ان يسأل أحد عن أمك.. عن عائلتك، وما كنت أحلم أن أطلب من رايان ايجاد شيء عنها.. أعني... انني...».

«أعلم يا عزيزتي.. فأنا أكره السؤال عن عائلتي لأنني أعتبر ان شؤوننا الخاصة لا تعني أحداً.. وليس هناك شيء فاسد في تكتمنا، بل مجرد رغبة في الخصوصية، وهذا شيء من حقنا، وأظنك توافقيني».

«أجل.. بالطبع!».

«اذن.. دعينا لا نتحدث بالأمر ثانية يا صغيرتي.. هه؟».

وأخذ يدها عبر الطاولة ليحني رأسه ويضغط بشفتيه في دفء راحة يدها، ثم أخذ يمررهما فوقها مداعباً مما

www.elromancia.com

جعلها ترتجف.

في قرارة نفسها كان هناك ما يدفعها لفعل شيء حول هذا التصرف الجريء منه في مكان عام كمطعم مزدحم. ولكنها لم تجد لا الكلمات ولا الاندفاع لتعترض. بل حدقت بقمة الرأس الأشقر المنحني فوق يدها، كان جسدها كله يغلي، وانفتحت شفتاها بترقب مقطوع النفس وهي تمد يدها الأخرى لتلامس وجهه، بخفة وخوف..

«اريك!».

فرفع عيناه اليها وفيهما الحرارة المتقدة:

«هل نذهب يا حبيبتي..؟ اريدك لي وحدي!».

وأخذ قلبها يضرب صدرها وكأنه حيوان بري مسجون يحاول الهرب من القفص. وأحست وكأنهما أصبحا فجأة لوحدهما... انها اللحظة التي طالما تشوقت لها وحلمت بها. اللحظة التي يجب فيها ان تقرر ما اذا ستكون له لفترة، مهما كانت قصيرة، او ان تكون حازمة.. الآن.. وقبل ان تتورط مشاعرها أكثر فتورطها معها ولا يعود أمامها خيار.

ولم تكن تستطيع تحمل ان تخسره اذا أقرت بحبه مرة، ولن يكون لها القوة للخروج من حياته، ليس بالطريقة التي حدثت لسارة دوبريه مع تشارلز ستيوارت ويلكوت. ومدت يديها أمامها محاولة منع ارتجافهما:

«اريك.. لا أستطيع.. انت تعرف.. انني لا أستطيع...».

«ولكن ما أطلبه هو ان تأتي معي يا عزيزتي، ان تصغي الي قليلاً.. هه؟ وهل ترفضين حتى سماع ما أريد قوله؟».

فهمست:

«انا.. أظن انني أعرف ما تريد قوله. ولكنني... انت تعرف ما أحاول قوله يا اريك. لقد حاولت قول هذا لك مسبقاً... لن أستطيع ترك نفسي أتورط معك أعمق. ليس وأنا أعرف ان الأمر. لن يدوم!».

فكرر كلامها السابق بسخرية:

رجل واحد لامرأة واحدة... حلم كل امرأة! لماذا صعب عليك ان... اللعنة! لماذا انت خائفة من الحب.. يا ملاكي؟».

فالتقت بعينيه، وأحست بالغشاوة تزول عن عينيها، ووبخت نفسها لضعفها الواضح.. وقالت بصوت أجش:

«ولماذا تجد انت صعوبة في الحب؟ لماذا يجب دائماً ان تكون هناك علاقة حب عابرة يا اريك؟ لماذا لا ترغب في الشيء الحقيقي؟».

ووضع كأسه من يده، ولم يعد ينظر اليها، ثم نادى الساقي ليطلب الفاتورة، دون ان ينبت بكلمة، وساعدها أخيراً على الوقوف بيده تحت ذراعها.

في الخارج، توقفت قليلاً لتتنفس الصعداء في الجو الدافيء في الليلة الدافئة. ثم نظرت اليه:

«اريك..».

www.elromancia.com

ولكنه لم يلتفت اليها، بل أبقى ذراعه تحت ذراعها وقال:

«لا حاجة لك لأن تخافي يا صغيرتي. سأعيدك فوراً الى حماية جدي السالمة! ولن تعودي تحت الخطر مني!».

ولم تقل شيئاً. وجلست بقربه في السيارة عائدان الى القصر تبكي في سرها متسترة بالظلام، متمنية لو ان رايان لم يعد.. وعادت الرغبة في العودة الى الديار، ونسيان كل شيء عن اريك ويلكوت...

مع انها تعلم علم اليقين ان الوقت قد فات على محاولة نسيانه.

وهي تنزل للفطار في اليوم التالي، متخوفة من مواجهة أسئلة مضيفيها حول عودتهما المبكرة، التقت بمدبرة المنزل، براندة، فابتسمت لها قائلة:

«لقد اتصل السيد جيبسون ويعتذر لأنه لن يستطيع الحضور كما اتفقتما.. وسيتصل لاحقاً اليوم.

وبدت الصدمة على ديانا:

«اوه.. شكراً لك براندة».

وظهر القلق على وجه براندة.

«هل انت مريضة يا آنسة؟».

فابتسمت ديانا:

«اوه.. لا.. شكراً لاهتمامك.. انا بخير».

وتركتها مدبرة المنزل، ولكنها بقيت قلقة، واتجهت

نحو المكتبة، وهي تشعر برغبة في البكاء، كما حصر ليلة أمس.

والتقطت اللائحة التي تعمل فيها منذ أيام، ولكن تفكيرها لم يكن مركزاً على عملها، وبقيت تشاهد وجه اريك كما كان ليلة أمس.. متجهم وصارم. وهزت رأسها.. فاقدة الصبر مع ضعفها وتقدمت نحو النافذة تحدق في الحدائق المغمورة بشمس آب.

وانفتح الباب خلفها فاستدارت بسرعة، لتشاهد اريك في بنطلون أسود وقميص أزرق، وعلى وجهه نظرة كئيبة تتناقض مع عادته، ووقف داخل الباب مباشرة.. وقال بصوت عميق هادىء طالما وجدته يؤثر عليها.

«ديانا.. هل انت بخير؟».

السؤال أكد لها ان براندة قد أخبرته عن وجهها القلق. فردت:

«انا بخير تماماً، ولكنني قلقة قليلاً.. فلقد اتصل رايان ليقول انه لن يلقاني هذا الصباح».

«وهل يجعلك هذا قلقة؟».

فهزت كتفيها:

«فقط بسبب انني أتمنى ان لا يكون... لقد ذكر شيئاً عن شخص في الجامعة.. و...».

«عن أمي...».

وتردد قليلاً ثم ابتسم، وتقدم الى داخل الغرفة:

«لقد عرفت انه يقصد سارة ويلكوت.. أليس

www.elromancia.com

كذلك؟».

طوال مدة معرفتها به وبعائلته، لم تذكر سارة ويلكوت مرة واحدة، ولقد هددها بطردها من القصر اذا تابعت أسئلتها في القرية... ولكن شيئاً حدث منذ ليلة أمس... شيء جاء به اليها ليفضي اليها بشيء. فقالت:

«لقد خمنت هذا. مع ان الأمر صعب. ولم أبحث الأمر معه مطلقاً. أقسم لك، ولابد انه...».

«لقد اندفع بنفس الفضول الذي دفعك، يا صغيرتي».

«انه فضول كرهتني لأجله».

فهز رأسه فوراً بانكار:

«لم أكرهك يا ديانا، ولكنني لم أكن مستعد بعد لأقول لك».

«والآن؟».

فتفرس في وجهها عدة لحظات بصمت، ثم هز رأسه:

«ليلة أمس.. استلقيت في الظلام في غرفتي لعدة ساعات أفكر بك وأنت هذا الصباح مع رايان جيبسون... وقررت ان لا يكون هناك أسرار بيننا، وأن أقول لك ما تشائين عن سارة ويلكوت كما أعرف نفسي. فهل ستصغين الي يا عزيزتي؟».

الدموع التي طالما كبحتها، وقفت لامعة فوق عينيها... وتمنت أكثر من اي وقت مضى ان تمد يدها لتلمسه، وقالت:

«انت تعرف انني سأفعل».

وتحدث عن سارة ويلكوت، كما أدركت وهو يقص قصة أمه، وحياتها المأساوية القصيرة، وكأنها غريبة عنه. شخص سمع عنه ولم يثق به أبداً. ومضت دقائق قبل ان تدرك ان هذا بالضبط ما كانت سارة له. مجرد اسم من الماضي، غريبة لم يعرفها مطلقاً.

«لقد كانت تلميذة في أكاديمية أدبرة الملكية، وكذلك كان والدي، تشارلز.. وافترقا عندما أصبحت الحرب وشيكة وعاد هو الى المانيا».

وهمست:

«وهكذا أصبحا في معسكرين متحاربين».

«لم يكن الوضع سهلاً، ولم يتغير شيء بالنسبة لهما، فلقد كان زواجهما هنا في الكنيسة الصغيرة، وعقده الأب بيتر بنفسه. ولم يكن سهلاً ان تكون المراسم ملبثة، ووقت مغادرته الى بلاده كانت سارة تحمل طفلاً. ولكن خبر وفاته وصل الى مسامعها وهي تضع الطفل، فأصيبت بالذهول ولم تستفق منه مطلقاً. وماتت بعد بضع ساعات».

وارتجفت ديانا، متسائلة كيف يمكن له ان لا يتأثر وهو يروي لها القصة، ولكنها أصبحت الآن تعرفه جيداً، وتعرف ما يكمن وراء برودة وهدوئه، تعرف الرجل وراء كل هذا.

فهمست باسمه:

«اريك».

فنظر اليها وابتسم وكأنه ارتاح لروايته القصة أخيراً.

«دور الأب بيتر في زواجهما السري كان يجب ان يختفي، فذلك محرج له أمام بقية أهل القرية لو علموا انه من أجرى مراسم الزواج بين انكليزية والماني... وهو وحده من يعرف انني لست...».

وهز كتفيه بقلة اكتراث، وكأنه ينفض عنه الحمل الذي حمله طوال سنواته الثلاثين.

«أنا معروف باسم اريك ويلكوت، ولا أجد اية غضاضة في الاسم الذي أحمله».

«ولماذا تجد غضاضة؟ لقد أردت ان أقول لك ليلة أمس انني آسفة. ما كان يجب ان أقول لك تلك الأشياء عن الحب.. مهما كنت غير لطيف معي.. ما كان يجب ان أتطرق لأشياء شخصية.. ولست أدري ما كان عذري!».

«وما هو عذري أنا يا صغيرتي؟».

وتقدم منها الخطوة الباقية الفاصلة بينهما، والتي لامست بين جسديهما.. لمسة خفيفة جعلتها ترتجف، وجلبت الرعشة والالحاح لنبضات قلبها. وأخذ اللائحة من يدها، ثم أمسك بيديها بين يديه، متلمساً أصابعها بأصابعه بلطف متناهي، ثم هز رأسه وقال:

«لقد آلمتك، وأظن انني كنت أقصد ان أؤلمك يا عزيزتي، لأنني كنت خائفاً من الاعتراف بما يمكنك... وما فعلت بي حقاً».

فرفعت عينيها اليه، وكل عصب في جسدها يصرخ به ان يضمها بين ذراعيه.. ولم تكن تصدق بعد ما يحدث، ولكنها أرادت كثيراً ان تصدق بأنها أغمضت عينيها نصف اغماضة وهي تتطلع اليه، وترنحت الى الأمام، هامسة:

«وماذا فعلت بك؟».

وتسللت ذراعاه حولها، يضغطها بقوة أحست معها بضغط جسده وكأنه من جسدها. وردد بصوت منخفض:

«رجل واحد، لامرأة واحدة... لقد استلقيت لعدة ساعات الليل أردد ما تؤمنين به.. وأريد ان يكون الأمر هكذا بيننا. لو سمحت للأمر ان يتم».

وأحنى رأسه ليضغط فمه على نعومة بشرة عنقها، وصوته مختنق بشعرها الطويل:

«أحبك يا صغيرتي.. أحبك!».

ونظرت اليه ديانا بعينين اسودتا من شدة الاثارة التي اجتاحتها كالنار، تحثها كي لا تفكر بشيء ما عدا واقع انه يحبها. ورفعت ذراعاها لتلفهما حول عنقه، تفتش في وجهه الصارم وكأنها لا زالت غير مصدقة. وقالت بصوت مرتجف:

«كنت خائفة.. لقد أحببتك وكنت خائفة منك...».

«ليلة أمس عندما استلقيت أفكر بك تلك الساعات، تصورتك تلتقين برايان.. وعرفت انك لست بالشخص السهل نسيانه، يا حبيبتي. وعندما قالت لي براندة انك هنا في المكتبة، لوحدك. جئت أسعى اليك يا حبيبتي

www.elromancia.com

الصغيرة. . . لاعترف لك بمشاعري».

وعانقها بخفة، ثم همس:

«هل تتزوجيني يا حبيبتي؟».

ونظرت اليه وعيناها تبرقان برد دون كلمات:

«اوه يا اريك! أحبك. . أحبك يا عزيزي!».

فضحك اريك للكنتها الاسكتلندية التي حاولت لفظ كلمة أحبك بها، وجذبها اليه أكثر ليطبق بفمه عليها، فاستكانت طائعة للجوع الملحاح الذي أحست به له، تضغط نفسها أكثر اليه، وقد وثقت أخيراً انه يحبها بنفس الثبات الذي تحبه فيه. . . ومر وقت طويل قبل ان تفكر بسارة دوبريه. . سارة وتشارلز هما من بداءا هذا منذ مئتي سنة. . وبعد مئتي سنة. . . حصلت نهاية سعيدة أخيراً. . . وكانت نهاية طالما تصورتها.